

دار اليقظة العربية للتأليف والترجمة والنشر



ليوتولستوي

# لحن كرويتزر

ترجمة  
سامي الدروبي

سلسلة عميون الأدب العالمي  
٣٨

دار اليقظة العربية للتأليف والترجمة والنشر



ليوتولستوي

# لحن كرويتزر

ترجمة

سامي الدروبي

سلسلة عيون الأدب العالمي

٣٨

مفرد الترجمة والطبع والنشر والقياس  
محافظة  
لدار اليقظة العربية للنايف والترجمة والنشر  
دمشق - سورية

١٩٥٩

---

تعهد

المؤسسة الثقافية  
للنشر والتوزيع

بدمشق

---

الناشرون

- دمشق : دار اليقظة العربية : شارع المنسي هاتف ١٢٢٦٤  
القاهرة : مؤسسة الحانجي : شارع عبد العزيز هاتف ٤٣١٤٨  
بغداد : مكتبة المنسي : شارع المنسي هاتف ٨٣٥٨٨  
بيروت : المكتبة الشرقية : شارع المعرض هاتف ٣٣٢٢٤

« اما انا فاقول لكم كل من ينظر الى امرأة فيستهيها  
فقد زنى في قلبه » \*

( انجيل متى ، الاصحاح الخامس ، ٢٨ ) قال له  
تلاميذه :

« اذا كان هكذا امر الرجل مع المرأة ، فلا يحسن  
أن يتزوج »

فقال لهم :

« ليس الجميع يقبلون هذا الكلام بل الذين اعطى  
لهم » \*

( انجيل متى ، الاصحاح التاسع عشر ، ١٠ و ١١ )

نحن في مطلع الربيع • القطار يجري منذ يومين • المسافرون  
الذين يقطعون مسافات قصيرة يدخلون الى العربات ويخرجون منها •  
غير أن هنالك ثلاثة أشخاص بدأت رحلتهم ، مثلني أنا ، منذ أول  
سير القطار : سيدة ديمية تجاوزت الصبا ، تدخن ، منهوكة شاحبة ،  
يرتدي معطفا لا هو من معاطف الرجال ولا هو من معاطف النساء  
بل هو بين بين ، ورجل يصحبا ، مهندس مكثار ، في نحو الأربعين  
من عمره ، يرتدي ملابس جديدة ، ثم رجل منزو ، قصير القامة ،  
وايزال شابا ، ولكن شعره مضرر أصيب قبل الأوان ، في عينيه  
السماع والفقار ، فهما تتقلان من شيء الى شيء ، بمثل ملح البرق ، وأنه  
يرتدي معطفا عتيقا باقعة من فراء ، لا شك أنه خرج من بين يدي  
خياط حاذق ، وعلى رأسه قبعة من هذا الفراء نفسه ، فإذا فك أزرار  
المعطف رأيت تحته ياديوفاكا ( ١ ) ، وقبصا روسيا مطرزا • ومن  
غرباب هذا السيد أنه كان يطلق من حين الى حين أصواتا عجيبة

( ١ ) سترة تزرر من جانب • وتصل الى الركبة •

شبه أن تكون سعالا أو ضحكا لم يكتمل • وقد حرص طوال  
الرحلة على أن يتحاشى كل علاقة أو اتصال بالمسافرين • فكسان  
إذا حاول خيرانه أن يحدثوه يجيب بكلمات موجزة حاسمة • وكان  
بقراً أو يدخن وهو ينظر من خلال النافذة ، أو يتناول شيئاً مما  
يقمه كسيه من زاد فيشرب قليلا من الشاي أو يزدرد لقمة من  
طعام • كان يخيل الي أن وحدته تثقل عليه ، فهمت غير مرة أن  
أتحدث معه ، ولكنه كان متى التقت نظراتنا ( وهي تلقي كثيرا لأننا  
متقابلان ) ، يشيح يوجهه ، ويتناول كتابه أو ينظر من النافذة •  
وفي سهرة اليوم الثاني ، اثناء توقف القطار في محطة هامة ،  
مضى هذا الرجل العصبي فجاء بماء ساخن وصنع لنفسه شايًا • أما  
الرجل الآخر الذي كان يرتدي ملابس جديدة ، وهو محام فيما  
علمت بعد ذلك ، فقد ذهب يحتمي الشاي في المحطة نفسها مصطحبا  
جارته المدخنة التي كان معطفها لا هو من معاطف الرجال ولا هو  
من معاطف النساء بل بين بين •

وفيما كان هذا السيد وهذه السيدة غائبين ، دخل العربية  
أشخاص جدد ، بينهم شيخ حليق ، مفضل الوجه ، فارح القامة ،  
نعله تاجر ، كن يرتدي سترة من فراء ، وعلى رأسه خسوذة من  
الجوخ ذات حافة ضخمة •

جلس التاجر أمام محل السيدة والمحامي ، ولم يلبث ان شرع  
يتحدث مع قتي دخل العربية في تلك المحطة نفسها ، وهو بائع في  
مخزن • كنت جالسا جلسة منحرفة ، فكنت أستطيع ما دام القطار  
واقفا أن أسمع شذورا من حديثهما •

قال التاجر أولا انه ذاهب الى ارضه التي تبعد محطة واحدة •  
ثم دار الحديث ، كما يدور دائما ، على الاسعار ، والتجارة وتنافس  
الرجلان في تلاعب التجار بموسكو الآن ، وانهي بهما المطاف الى

الكلام على معرض نيجني نوفجورود • فأخذ الفتى يقص على الشيخ ضروب الفجور والفسق التي تعاطاها في المعرض تاجر غني يعرفانه كلاهما ، ولكن الشيخ لم يدع الفتى يتم كلامه ، بل أخذ يروي له انواع اللهو والمجون التي أسهم هو نفسه فيها بمدينة كونافين • كان واضحا انه يعتر بمسأله في ذلك ، فكان يقص على الفتى ، وقد لاح في وجهه الفرح ، كيف قام مع ذلك الصديق نفسه ، وهما في حالة السكر ، بمدينة كونافين ، بمأثرة تبلغ من الفحش ان المرء يستحي ان يتحدث عنها الا همسا •

فما ان سمع الفتى القصة حتى انفجرت فقهه قهقهة هزت العربة كلها ، واخذ الشيخ يضحك هو الآخر كاشفا عن سنين صفراوين • وقدرت أنني لن أسمع شيئا شائقا ، فهضت لامشي على الرصيف قليلا قبل ان يتحرك القطار •

فصادفت المحامي والسيدة عند مدخل العربة يسيران ويتحدثان

بحرارة •

قال لي المحامي الأنيس :

- لن يتسع الوقت ، فان دقة الجرس الثانية توشك أن تذوي •  
وفعلا ، ما ان وصلت من سيرى على الرصيف الى نهاية القطار ، حتى قرع الجرس • فلما عدت الى العربة وجدت السيدة والمحامي ما يزالان غارقين في حديثهما الحار • ووجدت التاجر العجوز يجلس أمامهما صامتا ، وهو ينظر نظرة قاسية ، ويمضغ الكلام مستاء من حين الى حين •

وفيما أنا أمر قرب المحامي ، سمعته يقول :

- ثم اعلنت لزوجها صراحة أنها لا تستطيع أن تعيش معه ، ولا تريد ان تعيش معه ، لأن •

قال المحامي ذلك ، ثم راح يقص شيئاً لم أستطع أن أسمع .  
ودخل وراتي بعض الركاب ، ومر مراقب التذاكر ، ووصل أحد  
ضباط الشرطة راکضاً ، وظلت الحيلة تمنني خلال مدة طويلة من  
سماع الحديث . حتى اذا عاد كل شيء الى الهدوء ، واستطعت ان  
أسمع صوت المحامي من جديد ، كان الحديث قد انتقل من حالة  
خاصة الى نظرات عامة . فكان المحامي يقول ان مسألة الطسلاف  
تشغل الرأي العام في اوربا الآن ، وأن أمثال هذه الحالات تكسر  
في بلادنا يوماً بعد يوم . فلما لاحظ المحامي أن صوته أصبح المصوت  
الوحيد الذي يسمع قطع حديثه واتجه الى الشيخ يسأله ، وهو  
يستسم ابتسامة تودد وتحبب :

— هذه أمور ما كان لها وجود في الماضي ، أليس كذلك ؟  
فأراد الشيخ أن يجيب شيء ، ولكن القطار اهتز في تلك  
اللحظة ، فرفع الشيخ خوذته ، وأخذ يرسم اشارة الصليب ، ويدمدم  
بدعاء .

فحول المحامي نظره ، وانتظر في أدب . فلما انتهى العجوز  
من دعائه ، ورسم اشارة الصليب ثلاث مرات ، ووضع خوذته على  
رأسه قائمة ، واحكم دسها ، واستراح في جلسته وأخذ يتكلم ،  
فقال :

— قد كان لهذه الأمور وجود في الماضي أيها السيد ، ولكنها  
كانت أتدر منها الآن . ولا بد أن تجري الأمور هنا المجري في  
أبنا هذه ، لأن الناس قد أفرطوا في الثقافة .

كان القطار يزداد سرعة ، وكان اذا يمر على مفاصل السكك  
يحدث ضجة قسوية ، فأصبحت لا أستطيع سماع الكلام ، ولكن  
الحديث كان شائقاً فأقترت .

وكان يجري - الرجل العصبي المتقد العينين - يمسد أذنه  
ويصيح بسعده دون أن يتحرك من مكانه . كان واضحا أن هذا  
الحدث يهمه وشوقه .

قالت السيدة وهي تبسم ابتسامة خفيفة :

- لماذا تظن ان الثقافة تضر ؟

ثم اضافت تقول ، لاجوابا على الكلام الذي نطق به محدثها  
حقا ، بل على الكلام الذي تظن أنها سمعته ، وذلك على عادة كثير  
من النساء :

- هل الأفضل حقا أن يزوج الخطيبان دون يستطيع  
احدهما رؤية الآخر ، كما كان يقع في الماضي ؟

ثم اتجهت الى المحامي والتي أنا ، لا الى العجوز الذي كانت  
تحدثه ، فقالت :

- كان الخطيبان لا يعرفان هل همان متحابان ، يمكن ان يتحابا  
يوما ، كان الفتى يزوج أي فتاة ، وكانت الفتاة تتزوج أي فتى ،  
لبتألا بعد ذلك مدى الحياة . هل هذا في رأيك أفضل ؟

فكرر الشيخ يقول وهو ينظر الى السيدة في احتقار ، ولا يجيب  
على سؤالها :

- لقد افردت الناس في الثقافة .

قال المحامي وهو يبسم ابتسامة سيرة لانكاد تدرك :

- أود لو أعرف كيف تفسر العلاقة القائمة بين الثقافة وبين  
الخلاف في الزواج .

فأراد العجوز أن يجيب بشيء ، ولكن السيدة قاطعته تقول :

- ذهب ذلك الزمان . . .

غير أن المحامي قاطعها بدوره قائلا :

- افسحي له مجال التعبير عن رأيه .



فقال العجوز جازما :

- كل حماقة مردها الى الثقافة •

- يزوجون شخصين غير متحابين ثم يعجبون لما يقع بينهما

من خلاف •

هذا ما أسرعت تقوله السيدة ، وهي تلتفت نحو المحامي ،

ونحوي ، وحتى نحو الفتى البائع ، الذي نهض عن مكانه ، وانكأ

على ظهر المقعد ، وأخذ يصغي الى الحديث متبسما •

قالت السيدة ، رغبة منها في ادعاش المحامي من غير شك :

- الحيوانات وحدها تتزوج على مشيئة سيدها • أما البشر

فلهم ميولهم وعواطفهم •

قال العجوز :

- خطأ أن تقولي هذا الكلام ياسيدي ، فالحيوان بهيم ، أما

الاسان فيجب أن يعيش وفقا للقانون •

فأسرعت السيدة تقول :

- ولكن كيف يعيش المرء مع اسان لا يحبه ؟

أغلب الظن أن هذه الآراء كانت تبدو للسيدة جديدة كسل

الجدة •

قال العجوز بلهجة متعاطلة :

- كان الناس في القديم لا يولون هذا الأمر كبير اهتمام ، والآن

انما أخذوا يهتمون به • أصبحت المرأة تقول لزوجها عند أسير

مناسبة « أريد أن أتركك » ، ودرج هذا حتى بين الفلاحين :

« اليك قمصانك وسراويلك فخذها • انني ذاهبة مع فانكا • فضفائر

شعره أجمل من ضفائر شعرك ! » مارأيك في هذا ؟ ان أول شيء

يجب ان يتوافر في المرأة هو الخوف •

نظر المستخدم الى المحامي ، ونظر الى السيدة ، ونظر الي ،  
وفي فمه ابتسامة يجسها ، مستعدا لتأييد كلمات العجوز أو للضحك  
منها تبعاً لما سنستقبل به هذه الكلمات .

قالت السيدة :

- أي خوف تعني ؟

- خوف المرأة من رجلها .

- لا يا عم ، هذا زمان مضى وانقضى .

قالت السيدة في شيء من الحق .

فقال العجوز وهو يهز رأسه :

- لا يا سيدتي ، ذلك الزمان لا يمكن ان ينقضي . لقد خلقت

حواء من ضلع الرجل ، وستظل كذلك الى آخر الدهر . . . .

قال العجوز ذلك وقد لاح في وجهه من القسوة ومن معاني

الظفر ما جعل الفتى المستخدم يعتقد فوراً ان التاجر قد أحرز

النصر ، فأخذ يضحك ضحكا صاخبا .

قالت السيدة ملتفتة لينا دون أن تريد الخضوع :

- هكذا تفكرون اتم معشر الرجال . . . . . تهبون الحرية

لانفسكم وتريدون ان تحرموا منها النساء وان تسجنوهن . ولاشك

في أنكم تبيحون لأنفسكم كل شيء .

فقال التاجر يتابع كلامه في غمز :

ما من احد يمنح اذنا . ولكن الرجل لا يحمل الى البيت

شيئا ، أما المرأة الزوجة فهي آتية سريعة العطب .

كان واضحا أن لهجة الثقة التي كان يتحدث بها العجوز قد

أخذت تنصر على مستمعيه ، حتى أن السيدة نفسها أحست بأنها

غلبت ، ولكنها لم تشأ بعد ، أن تستسلم . قالت :

- نعم ، ولكنني أعتقد أنك توافقني على أن المرأة انسان

كالرجل سواء بسواء . فلماذا يجب أن تعمل إذا كانت لا تحب زوجها؟  
فلما سمع التاجر هذا الكلام اكتسى وجهه شكلا رهيبا وحرك  
حاجبيه وشفتيه ، ثم ردد يقول :

– لا تحب ؟ لا تخافي ، انها ستحب .

أعجب الفتى البائع بهذه الحججة التي لم تكن متطورة ، أعجب  
بها إعجابا خاصا ، فأطلق صوتا يحبدها ويؤيدها .  
قالت السيدة :

– لا لن تحب ، وإذا لم يكن حب ، فلا يمكن الاكراه على

• الحب •

قال المحامي :

– وإذا خانت المرأة زوجها ، فلماذا يتحدث ؟

فأجاب العجوز بقوله :

– هذا أمر يجب أن لا يقع • يجب أن نراقب هذا الأمر •

– ولكن ماذا نعمل إذا وقع هذا الأمر رغم كل شيء ؟ ذلك

أنه يقع فعلا •

قال العجوز :

– يقع عند غيرنا ، أما عندنا فلا •

صمت الجميع ، فتحرك الفتى البائع ، واقترب أكثر من ذلك ،

وأخذ يقول مبتسما ، لأنه لا يريد أن يقصر عن الآخرين في

الحديث :

– وقعت فضيحة لشاب من عندنا • وهي حالة يصعب القطع

فيها برأيي • لقد تزوج امرأة حقيفة طائشة • بدأت شيطانها •

كان الشاب رصيا مثقفا • بدأت علاقتهما بالكتاب • فحاول زوجها

أن يردعها وأن يردها الى الصواب في رفق وصدافة • ولكنها لم

تأبه • واستمرت في فسادها • سرقت ماله • ضربها • لا جدوى •

كانت تزاد سوا • حتى لقد عقدت صلة مع يهودي غير معمد •  
عفوكم اذا ذكرت هذا ••• ماذا كان على الزوج أن يعمل ؟ لقد  
هجرها هجرا تاما ••• وعاش بعد ذلك عازبا • ومضت هي لا تلوي  
على شيء •

قال العجوز :

- صاحبك رجل غيبي أبله • لولا أنه أرخى الجبل على  
الغارب منذ البدء • ولولا أنه لم يظهر شيئا من القسوة والصرامة  
حقا • لبقيت له ••• ثق بذلك • يجب أن تضع الحرية منذ البدء •  
لا تأمن إحسان في الحقل ولا لامرأة في البيت (١) •

وفي هذه اللحظة دخل المنشد • وطلب التذاكر من المسافرين  
الذين سينزلون في المحطة الآتية • فإولاه العجوز تذكروته •

- نعم • يجب منذ البرعي منذ البدء • والأضاح كل شيء •

لم استطع أن أجيب نفسي عن الكلام • فقلت :

- ولكنك رويت أنت نفسك عند قليل كيف كان الرجال

المتزوجون يعيشون في معرض كوناغين •

- هذا شيء آخر •

قال العجوز ذلك • ثم غرق في الصمت •

فلما دوى صوت الجرس • نهض التاجر • وأخرج كيسه

من تحت المقعد • وزر سترته • وخرج من العربة وهو يرفع

خوذته •

٢

ما ان مضى العجوز حتى ارتفعت عدة أصوات تنكلم • قال

(١) مثل روسي قديم •

الفتى البائع :

• انه حقا من التوراة ، هذا العم .

وقالت السيدة :

• انه دومستري (١) حي . ما هذه النظرة التوحشة الى

المرأة والى الزواج ! ••

وقال المحامي :

• نعم ، ما نزال بعيدين عن رأي الأوربيين في الزواج .

قالت السيدة :

• الشيء الأساسي الذي لا يفهمه هؤلاء الناس هو أنه لا زواج

بلا حب ، وان الحب هو ما يدعم الزواج ، وأن الزواج الوحيد

الذي يمكن أن يعد زواجا حقا اما هو الزواج الذي يقده الحب .

كان الفتى البائع يصغي ويتسم ، فهو يريد أن يحفظ أكثر

ما يستطيع حفظه من هذه المحادثات الذكية ، عسى أن يستعملها

يوما .

وفيما كانت السيدة تكلم ، سمعت صوت ضحكة أو زفرة

قطعت ، فنظرت ورائي ، فرأيت جاري ، الرجل المتزوي الأشيب ،

ذا العينين المتقدتين ، الذي كان واضحا أن الحديث يشوقه ويهمه ،

رأيته قد اقترب منا دون أن نلاحظ ذلك . كان واقفا ، متكئا على

ظهر المقعد ، وكان يبدو مضطربا أشد الاضطراب . لقد اصطبغ

وجهه بحمرة شديدة ، وتجمد خده بحركة عصبية .

قال مترددا :

• ما هو ذلك الحب الذي يدعم الزواج ؟

---

(١) أول قانون عائلي روسي .

فلما رأَت السيدة أن محدثها في حالة من الاضطراب ، قالت في رفق ولطف ودقة :

- الحب الحق . . . فاذا قام هذا الحب بين الرجل والمرأة  
أمكن الزواج .

فقال الرجل المتقد العينين ، قال خجلا وهو يتسم ابتسامة خرقاء :

- نعم ، ولكن كيف نفهم هذه الكلمة : الحب الحق ؟

- كل إنسان يعرف ما هو الحب .

قالت السيدة ذلك ، وكان واضحا أنها تريد أن تختم الحديث .  
قال الرجل :

- أما أنا فلأعرف ، يجب أن تحددني ما تقصدينه بقولك الحب .  
قالت السيدة بلا تردد :

- الأمر بسيط . الحب هو أن تؤثر شخصا على جميع من عناه .  
- أثره لأي مدة : شهر ، شهرين أو نصف ساعة ؟

قال الرجل الأشيب ذلك ، وأخذ يضحك .

- لا ، اسمح لي ، انك تتحدث عن شيء آخر .

- بل أتحدث عن الحب نفسه .

- ان السيدة تقول ( كذلك قال المحامي وهو يشير بيده الى

السيدة ) ان الزواج يجب أن ينشأ عن التعلق ، أو قل ان شئت عن

الحب ، وبهذا الشرط وحده يصبح الزواج أمرا مقدسا ، وهي تقول

ثانيا ان الزواج لا يقوم على هذا التعلق الطبيعي - أعني الحب -

الذي لا يشتمل على شيء من الاخلاق أو الألتزام . أهذا ما أردت أن

تقولينه ؟ ( وجه المحامي هذا السؤال الى السيدة ) .

فأحت السيدة رأسها اشارة أنها توافق على هذا الشرح .

وتابع المحامي يقول :

- ثم ان ...

ولكن الرجل العصبي الذي أصبحت غيباه الآن كالتار اشتعالا ،  
وأصبح لا يستطيع أن يلجم نفسه ، لم يدع أن يتم كلامه ، بل أخذ  
يقوله :

- انني أتحدث عن هذا الشيء نفسه ، عن إثارة شخص من  
الأشخاص على سائر من عداه . ولكنني أسأل : لأية مدة من الزمن ؟  
- لأية مدة من الزمن ؟ لمدة طويلة ، وربما مدى الحياة .  
قالت السيدة ذلك وهي ترفع كفيها .

- هذا يحدث في الروايات ... أما في الحياة فلا ... قد  
يدوم هذا الأثر ، في الحياة ، بضع سنين أحيانا . وهذا نادر جدا  
... والأغلب أنه يدوم أشهراً ، ان لم يكن أسابيع ، أو أياماً ، أو  
ساعات ( قال ذلك وهو يلاحظ بداهة أن هذه الآراء تدعش الجميع ،  
فكان يرضيه ذلك ) .

فقلنا نحن الثلاثة في آن واحد :

- ما هذا الكلام ؟ لا ، لا ، من فضلك ...

حتى أن الفتى اليافع نفسه أطلق صوتاً يشجب به هذه الآراء .  
فصرخ الرجل الأشيب بصوت يعلو أصواتنا جميعاً :

- نعم ، نعم ، انكم تتحدثون عما يجب أن يكون ، أما أنا  
فأتحدث عما هو كائن . ان كل رجل يشعر نحو كل امرأة جميلة  
بما تسمونه حياً .

- فقطع هذا الكلام الذي تقوله ! ان بين البشر مع ذلك عاطفة  
هي الحب ، لا تدوم أشهراً أو سنين ، بل تستمر مدى الحياة .

- هذه العاطفة لا وجود لها . واذا صلينا بأن رجلاً من الرجال  
أثر امرأة بعينها مدى الحياة ، فمن الممكن أن تؤثر هذه المرأة عليه  
رجلاً آخر . كذلك كان الأمر دائماً على هذه الأرض .

قال ذلك وهو يسحب سيجارة من علبة ، فيشعلها •

فأجاب الحامي بقوله :

- ولكن يمكن أن يكون الحب متبادلا •

- لا يمكن ••• أتذا جئت بحنين من حبات البازلاء فوشمتهما ،

ثم خلطتهما بكومة من الحب ، وحركت الكومة ، عادت الحبتان فالتقنا

جنباً الى جنب ؟ ان الحب المتبادل مستحيل استحالة التقاء هاتين

الحبتين !

ثم ان الأمر ليس أمر احتمال فحسب ، بل هو أيضا أمر شع •

مثل القائل بالحب مدى الحياة ، كمثل القائل بأن شمعة يمكن أن

تظل مشتعلة مدى الحياة •

قال ذلك وهو يسحب من سيجارته نفسا كبيرا في شراقة •

- ولكك لا تتحدث إلا عن الحب الجسدي • أفأنت لا تؤمن

أذن بحب يقوم على أساس من الاشتراك في المثل العليا ، ومن القرابة

الفكرية والروحية ؟

كذلك قالت السيدة ، فأجاب وهو يقهقه قهقهة خاصة به :

- القرابة الفكرية والروحية ! الاشتراك في المثل العليا ! ولكن

ليس من الضروري في مثل هذه الحالة أن يكون نمة مضاجعة

( عفوكم اذا كان كلامي فظا غليظا ) ، والأضاحع الناس بعضهم بعضا

لاشترك بينهم في المثل العليا •

قال ذلك وضحك ضحكا عصبيا •

فأجابه الحامي بقوله :

- اسمح لي • ان الوقائع تناقض كلامك • فتحن نرى الحالة

الزوجية قائمة ونرى الأناسية كلها أو جلها تعيش على هذه الحالة

وأن كثيرا من الناس يعمون بحياة زوجية طويلة شريفة •

ضحك الرجل الأشيب مرة أخرى •



- تقول او لا ان الزواج يجب أن يقوم على الحب ، فاذا أعربت  
عن شكّي في وجود هذا الحب ، الا أن يكون تعلقا جديدا ، حاولت  
أن تبرهن لي على وجود الحب بوجود الزواج . ليس الزواج في  
أيماننا هذه الا كذبا .

قال المحامي

- لا ، اسمح لي ، انما أنا أقول ان الزواج كان ولا يزال قائما .  
- لا أنكر أنه قائم . ولكن لماذا هو قائم ؟ لست اجحد أنه  
وجد وما يزال يوجد لدى أناس يرون في الزواج شيئا مقدسا يربطهم  
أمام الله ، ولكن ليس عندنا . الناس عندما يتزوجون من أجل ارواء  
الشهوة ، وينتج عن ذلك أحد شيئين : اما الخيانة واما الاذعان .  
والخيانة يمكن احتمالها . فالزوج والزوجة يتظاهران أمام الناس  
بالوفاء ، ثم يخون كل منهما الآخر . واذ كان هذا شرا ، فان هذا  
الشرا يمكن احتماله . أما اذا أذعن الزوج والزوجة ، فارتضيا في  
الظاهر أن يعيشا معا مدى الحياة ، كان كل منهما يكره الآخر منذ  
الشهر الثاني ، ويتمنى لو يفصل عنه . ولكنهما يعيشان في منزل  
واحد ، فينشأ عن ذلك أن يصبح البيت جحيما ، وبسبب هذا يندفع  
المرء الى الشراب ، أو يتتجر ، أو يسمم نفسه ، ويسم الآخر .  
كان كلامه يزداد سرعة ، فما يتيح لأحد أن يدس فيه كلمة  
واحدة . وشعرنا جميعا بضيق .

قال المحامي يريد أن يقطع هذا الحديث المزعج :

- لا شك أن في الزواج فترات حرجة .

- أظن أنك عرفتني . . .

قال الرجل الأشيب ذلك ، بلهجة ظاهرها الهدوء .

- لا ، لم أسعد بمعرفتك قبل الآن . . .

- لست معرفتي سعادة . . . أنا بوزدنيشيف الذي مرضتة من

الفترات الحرجة التي أشرت إليها ، أنا قاتل امرأته •••  
قال ذلك وهو يلقي علينا نظرة سريعة واحدا بعد آخر • فلم  
يجر أحد منا ما يقوله ، فصمتنا جميعا • قال وهو يضحك ضحكته  
الساخرة :

- على كل حال ، لا قيمة لهذا كله • أرجو أن تعذروني • لن  
أزعجكم أكثر مما أزعجتكم الآن •  
- ما أزعجتنا أبدا •••

قال المحامي ذلك دون أن يعرف لماذا •  
ولكن بوزدينشيف عاد الى مكانه بنصف دون أن يصغي اليه •  
وأخذ المحامي والسيدة يتهامسان •  
كنت جالسا الى جانب بوزدينشيف صامتا لا أتكلم ، لأنني  
لا أجد ما أقوله • وكان الظلام أشد من أن أستطيع القراءة ،  
فأغمضت عيني ، وتظاهرت بالنوم •

مضى المحامي والسيدة الى عربة أخرى من القطار بعد أن  
تناقشا في ذلك مع المفتش • أما القتي البائع فقد استلقى استلقاء  
مريحا على المقعد ونام •

وظل بوزدينشيف يدخن سجائره ، ويشرب من الشاي الذي  
أحضره من المحطة السابقة •

فلما فتحت عيني ونظرت اليه قال لي بلهجة حازمة :  
- ربما كان يزعجك أن تظل قريبا مني بعد أن عرفت من أنا ؟  
فاذا كان الأمر كذلك ، تركتك ومضيت الى مكان آخر •  
- أبدا ، أرجوك •

- اذن فهل لك بقليل من الشاي ؟ انه قوي جدا •  
قال ذلك وصب لي شيئا من الشاي • ثم أردف :  
- انهم يتكلمون ويكذبون طوال الوقت •••

- أي موضوع تعني ؟

- ذلك الموضوع نفسه : الحب الذي يتحدثون عنه ويصفونه

وصورونه • هل تريد أن تنام ؟

- لا ، أبدا •

- هل تريد أن أقص عليك كيف وصلت الى ما وصلت اليه

بسبب ذلك الحب ؟

- اذا كان لا يؤلمك ذلك •

- يؤلمني أن أسكت • اشرب الشاي أولا ••• أم تراه قويا؟

كان الشاي قويا في الواقع ، حتى لكأنه البيرة مرارة • ولكنني

شربت فدحا • وفي هذه اللحظة مر المفتش • فتابعه بجاري بنظرة

خبيثة ، وهو صامت ، ثم لم يبدأ كلامه إلا بعد أن غاب •

### ٣

- اذن سأروي لك القصة •• ولكن هل تريد ذلك حقا ؟

فكرت اقول انني أرغب في ذلك كثيرا • فسكت ، وذلك وجهه

بيديه • ثم بدأ :

- كي أجيد الحكاية ، يجب أن أبدأ من البداية ، يجب أن

أذكر لك كيف ولماذا تزوجت ، وماذا كنت قبل زواجي •

« كنت قبل زواجي أعيش كما يعيش سائر الناس ، أعني كما

يعيش سائر الناس في بيتنا • فانا من أصحاب الاطيان ، ومتخرج من

الجامعة ، ومن وجوه الطبقة النسيلة • فكنت أحيا حياة فاسدة معتقدا

بأنني أعيش كما ينبغي ، كسائر رجال بيتنا • وكنت أظنني رجلا فانا

وعلى جانب عظيم من رفعة الخلق • فاني لم أكن أغرر بالنساء ، ولا

كانت لي ميول مخالفة للطبقة ، ولا كنت أجعل المحور والدمعارة هدف

حياتي ، لكثير من رفاقي ، وإنما كنت أعاطي اللذة في رصانة ووقار ،  
من أجل صحتي . وكنت أتحاشى من النساء أولئك اللواتي يمكن أن  
يربطني بهن لولادة طفل أو لتعلق منهن . والواقع أن أولادا ولدوا  
وأن تعلقا وقع ، ولكنني تجاهلت ذلك . ولم أكن أعد ذلك من رقة  
الأخلاق فحسب ، بل كنت أعتر به وأزهو .

وهنا توقف عن الكلام ، فضحك ضحكته الساخرة ، تلك التي  
يضحكها كلما ساورته فكرة ما . قال صائحا :

« وهذا بعينه هو ما يثير الاشمئزاز أكثر من أي شيء آخر .  
ذلك أن الفساد ليس حالة جسدية ، فما من عهر جسدي يمكن أن  
يكون هو الفساد . وإنما الفساد الحقيقي أن تتحرر من كل ارتباط  
نفسية بالمرأة التي تعاشرها معاشرة جنسية . وهذا التحرر هو  
بعينه ما كنت أعتر به . مازالت أذكر إلى الآن كيف تأملت ذات مرة  
أشد الألم حين استسلمت لي إحدى النساء عن حب صادق شعرت  
به نحوي ، فلم يتسع وقتي لأن أدفع لها مالا ! اني لم اهدأ بالا الا  
حين استطعت أن أبعث اليها بمبلغ من المال ، مينا بذلك أنني لم تكن  
أربط بها أي ارتباط روحي . لانهز رأسك مؤيدا كأنك توافقني  
على رأيي (بهذا هتف فجأة) . أنا أعرف هذا . انا جميعا - وانت  
أيضا ، الا أن تكون استثناء نادرا - ترى هذه الآراء التسي كنت  
أراها أيامئذ . على كل حال لا تؤخذني . ولكن هذا كله  
فقطع ، فقطع ، فقطع ! »

- ما هو الفقطع ؟

- هذه الهاوية من الضلالات التي تعيشها اراء النساء ، وهذه  
العلاقات التي نعدها معهن . نعم ، اني لا أستطيع أن أحفظ  
بهديوني حين أتحدث عن هذا الأمر ، لاسبب الفترة الحرجة كما  
قال ، فحسب ، بل لأن عيني قد افتحتا منذ تلك الفترة ، فأصبحت

أرى كل شيء في ضوء جديد • أصبحت أرى كل شيء من قفاه!  
قال ذلك واشعل سيجارة ، ثم انكأ بكوعيه على ركبتيه وراح  
تتكلم •

كان يستحيل علي أن أميز وجهه في الظلام • ولكنني كنت  
أسمع صوته المنعجم الجميل ممتزجا بقرقعة عجلات القطار •

## ٤

• نعم انني لم أفهم أين يشوي سبب كل شيء ، لم أفهم ما يجب  
أن يكون ولا فظاعة ما هو كائن ، الا بعد ان تأملت كما تأملت ، لم  
أفهم هذا كله الا بفضل ما عانيت من عذاب •

• انظر وكيف ومتى بدأت الأحداث التي أدت بي الى أن ارتكب  
الفعل الذي ارتكبته • لقد بدأ ذلك حين لم أكن قد بلغت السادسة  
عشرة من عمري • كنت في المدرسة الثانوية ، وكان أخي الأكبر  
طالبا في السنة الأولى من الجامعة • لم أكن قد عرفت النساء بعد ،  
ولكنني ، كسائر أطفال بيتنا النساء ، كنت قد فقدت براءتي: كان  
قد جرفني الأشقياء الى الفساد • كانت المرأة ، منذ ذلك الحين ،  
( لا أعني امرأة بعينها ، بل المرأة جملة ، المرأة كمخلوقة لطيفة  
ناعمة ، كجسد عار ) . كانت المرأة تقض مضجعي • كانت خلواتي  
غير نقية ، غير طاهرة • كنت أتعذب كما يتعذب تسعة وتسعون في  
المائة من صيئنا • كنت أخاف ، وأتألم ، وأصلي ، وأزل • كنت  
أستسلم للفجور خيالا وواقعا ، ولكنني لم أكن قد خطوت الخطوة  
الأولى بعد • كنت أنهد وحدي ، دون أن أجر معي كائنا انسانيا  
آخر • ثم جاء رفيق من رفاق أخي ، وهو طالب مرح ، يقال انه  
فتى طيب أي انه أتفه الشباب طرا ، فعلمنا الشرب ولعب الورق •

وأفنعنا ذات يوم ، بعد أن شربنا ، أن نذهب الى هناك . ذهبنا .  
كان أخي بريئا أيضا ، وانما زل في تلك الليلة . ولطخت نفسي ،  
أنا الفتى الذي لم أبلغ السادسة عشرة من عمري لطخت نفسي  
وساهمت في تلطيخ المرأة ، دون أن أفهم ماذا أعمل . لم أكن قد  
سمعت من أحد ممن يكبرونني سنا بأن ما أفعله شر . والآن أيضا  
لن يسمع أحد ذلك . صحيح أن هذا مستكر في الأوامر والنواهي ،  
ولكن الأوامر والنواهي لا تفيد الا في الاجابة على اسئلة الكاهن اثناء  
امتحان الدروس الدينية ، وهي تعد دون قواعد الصرف والنحو  
خطورة . فأنا اذن لم أسمع يوما من أحد ممن يكبرونني سنا  
وأحترمهم ، أن هذا الأمر شر . بالعكس ، كان هؤلاء أنفسهم  
يجدون ذلك شيئا حسنا جدا ، كنت أسمع أن ما أعانيه من ألوان  
الصراع والعذاب يزول متى فعلت ذلك ، وأن ذلك مفيد للصحة ،  
وكانت الكتب تقول هذا الشيء نفسه . أما رفاقي فكانوا يجدون  
في هذا ميزة من الميزات . خطر المرض ؟ لقد احتاطت الحكومة  
نفسها لهذا الأمر ، انها تعنى بهذا الموضوع ، فتراقب بيوت الدعارة ،  
وتكفل سيرها سيرا مضطردا ، وتسهل على تلاميذ المدارس الثانوية  
أن يفسقوا دون خوف . ان هناك أطباء يسهرون على هذا الأمر ،  
ويتقاضون على ذلك أجرا . وهم يؤكدون أن الفسق مفيد للصحة ،  
فينظمون الدعارة تنظيما سليما مضطردا . واني لأعرف أمهات تسهر  
على صحة ابنائها هذا النوع من السهر . ان العلم يرسلهم الى بيوت  
الدعارة .

- العلم ؟ ماذا ؟

- أليس الأطباء كهنة العلم ؟ ان كهنة العلم هؤلاء هم الذين  
يُفسدون الشبان ، اذ يؤكدون أن ذلك مفيد للصحة ، ثم يعالجونهم  
بعدها من مرضى الزهري في كثير من الاهتمام .

- هل يجب أن يعالج الشبان من مرض الزهري ؟  
 - لو أفق جزء من مائة جزء منا ينفق من جهده لمعالجة  
 الزهري ، لو أفق على القضاء على الدغارة لأمكن أن يستأصل مرض  
 الزهري نفسه منذ مدة طويلة . أما الآن فإن الجهود تنصرف لا إلى  
 القضاء على الدغارة ، بل إلى انمائها وضمان استمرارها . على كل  
 حال ، ليس هذا هو ما يعنيني الآن . المهم أنه وقع لي ذلك الشيء  
 الرهيب الذي يقع لتسعين في المائة ، إن لم يكن لاكثر من ذلك ،  
 من رجال بيتنا ، حتى بين الفلاحين ، وهو أنني لم أسقط لأن امرأة  
 بعينها فتتي ، فما من امرأة أعرتني ، وإنما سقطت لأن الذين حولي  
 كانوا لا يرون في هذا العمل سقوطا ، بل يرى فيه بعضهم وظيفة  
 مشروعة مفيدة للصحة ، ويرى فيه بعضهم الآخر تسلية طبيعية تفير  
 لشباب . كنت لا أعرف أن هذا بعينه هو السقوط ، فاستسلمت لما  
 كنت أعده لذة من جهة ، وضرورة من جهة أخرى ، كما تعلمت  
 ذلك في عمر من الأعمار . اندفعت إلى هذه الدغارة اندفاعي إلى  
 الشراب وإلى التبغ . على أن هذا السقوط الأول كان يشتمل على  
 شيء خاص مؤثر . أتذكر أنني أصبحت حزينا أهم أن أبكي حتى  
 قبل أن أخرج من الغرفة . . . كنت أريد أن أبكي عذرتي وآرائي  
 في المرأة . نعم ، لقد فسدت علاقتي البسيطة الطبيعية بالمرأة فسادا  
~~في المرأة . نعم ، لقد فسدت علاقتي البسيطة الطبيعية بالمرأة فسادا~~  
 لا يمكن اصلاحه . فعند ذلك الحين أصبح يستحيل علي أن أعقد  
 صلوات ظاهرة مع امرأة . أصبحت فاسقا . تلك حالة جسيمة تشبه  
 حالة الأدمان على المورفين أو الشراب أو التبغ . فكما أن المدمنين على  
 هذه الأمور يصبحون أشخاصا غير أنسوياء ، كذلك من يعاشر عدة  
 نساء نشدانا للذة ، يصد إلى الأبد ، يصبح فاسقا . إنه يعرف من

وجهه ، ومن حر كاته ، كما يعرف المدمن على السكر أو على المورفين  
من وجهه ومن حر كاته • والفاسق قد يكافح ميوله ، فيعف ، ولكن  
علاقته بالمرأة لن تكون يوماً علاقات طبيعية ، بسيطة ، صافية ، نقية •  
انك تستطيع أن تعرف الفاسق من طريقته في النظر الى  
امرأة ، من طريقته في التدقيق في امرأة • ولقد أصبحت فاسقا ،  
وظلمت كذلك ، وهذا ما ضيعني •



« هذا ما وقع • ثم اني أوغلت في ذلك أبعد فأبعد • ففقدت  
 انواعا من العلاقات لاحصر لها • اللهم اني لأخاف أن اتذكر جميع  
 المفاسد التي اقرقتها في هذا الاتجاه • هكذا أتذكر نفسي الآن ،  
 وأتذكر أن زفاقي كانوا يلومونني على براءتي المزعومة ••• على كل  
 حال ، أنا لا أعد شيئاً اذا قست مغامراتي بما أسمعته عن مغامرات  
 كثير من الشبان المترفين ، والضباط ، والباريزيين • ان هؤلاء الفجرة  
 الذي قاربوا الثلاثين من العمر ، وأخفى ضميرهم مئات من الجرائم  
 ارتكبوها في حق النساء مثلي ، لا يصدون عن دخول قاعات الاستقبال  
 وصلات البالات ، مفتسلين خالقين معطرين ، مرتدين الفراك أو  
 غيره من الألبسة الرسمية علامة الطهارة ••• بالهذا المنظر الرائع •  
 «فانظر اذن فيما ينبغي أن يحدث وفيما يحدث في الواقع • ان  
 الشيء الطبيعي ، حين يأتي رجل من هذا النوع من الرجال ، فيقترب  
 من أختي أو من بنتي في اجتماع من هذه الاجتماعات ، من الطبيعي  
 أن أمسكه أنا الذي أعرف حياته ، وأن أنتحي به جانباً لأقول له :  
 • يا عزيزي ، انا اعرف الحياة التي تعيشها ، وأعرف مع من تقضي  
 لياليك • ما مكانك هذا المكان • فليس هنا الا فتيات طاهرات بريئات •  
 اذهب • • ذلك ما ينبغي أن يحدث • أما ما يحدث في الواقع فانا  
 نظرب وتهلل حين يظهر رجل من هؤلاء الرجال ، فيحاصر أختي  
 أو ابنتي في الرقص ، شريطة أن يكون على صلة بالمجتمع الراقى  
 وأن يكون غنيا • فلعله بعد ريجولبوش أن يشرف ابتنا أيضا •  
 ولا ضير أن تكون فيه آثار مرض • فالمرض تسكن معالجته في هذه

الأيام • انني أعرف بنات كثيرات زوجهن دووهن من رجال مصابين  
بمرض من الأمراض ، وكانوا في ذلك في كثير من الفرح والحمامة •  
X بالها من فظاعة ! متى ينحسر القناع عن هذه الشاعرات والاكاذيب !  
ضحك الرجل أثناء حديثه عدة مرات • فلما بلغ هذا انبلغ  
من الكلام أخذ يشرب الشاي • كان الشاي قويا جدا ، اذ لم يكن  
هناك ماء يخفف به • وقد شعرت بشي من الاضطراب بسبب قذحي  
الشاي اللذين شربتهما • ولعل الشاي قد أثر فيه هو أيضا ، فقد  
كان يزداد اضطرابه شيئا بعد شيء • وكان صوته يزداد حلاوة  
رنين وقوة تعبير • وكان يكثر من تبديل اتجاهه ، ويرفع قبعته ثم  
يضعها ثم يضعها ثم يرفعها • وكان وجهه يتبدل تبديلا غريبا في  
الظلمة التي كانت تلفنا •

« نعم ، لقد عشت على هذه الحال حتى الثلاثين من عمري ،  
دون أن أهجر لحظة واحدة عزمي على أن أتزوج وعلى أن أنظم  
لنفسي حياة عائلية أرفع وأنقى • لذلك كنت أبحث عن فتاة تتيح لي  
بلوغ هذا الهدف • كنت أعيش حياة داعرة ، وكنت أبحث في  
الوقت نفسه عن فتاة تقية يمكن أن تكون جديرة بي ! ولفظت عددا  
من الفتيات لا لشيء إلا لأنهن لم يكن على قدر كاف من النقاء  
في نظري • وعثرت أخيرا على واحدة تناسبني • انها احدى ابنتين  
لأحد أصحاب القصور في منطقة ينزا ، كان في الماضي غنيا ، ثم  
دمر غناه •

« ففي ذات ليلة ، بعد نزهة في القارب بينما كنت جالسا  
الى جانبها ، في طريق العودة الى البيت تحت أشعة القمر ، أعجب  
بالخطوط المتناسية المنسجمة من جسمها الرشيقي العمود في الحرير ،  
وأعجب بصفائر شعرها ، قررت أنها قد خلقت لي • وبدا لي في  
ذلك المساء أنها كانت تفهم كل ما أحسن به وكل ما أفكر فيه ، وبدا

لي أن ما كنت أحسن به وأفكر فيه شيء رائع • الواقع أن ثوب  
الحرير الذي كانت ترتديه هو الشيء الوحيد الذي كان يناسبها  
تماما ، وكذلك صفائر شعرها • وبعد أن قضينا يوما في تواصل  
حميم ، أردت مزيدا من هذا التواصل الحميم • انه لغريب أمر  
الجمال هذا ! تقول لك المرأة الجميلة كلاما سخيفا لا قيمة له ،  
فصغي إليها ، ولا تسمع كلاما سخيفا بل تسمع كلاما ذكيا • وإذا  
حدتلك في شئون خيسية رأيت في ذلك أمورا رائعة •  
فاتنة • فإذا لم تقل سخافات ولم تقم بأعمال تافهة خيسية ،  
بل اكتفت بأن تكون جميلة ، اقتنعنا بأنها معجزات من معجزات  
الذكاء والخلق • لقد عدت الى بيتي وأنا في حالة من الشهوة  
السكرية ، وقررت أنها ذروة الكمال وأنها لذلك جديرة بأن تكون  
زوجتي فلما جاء الغد خطبتها •

« انظر الى هذا الاضطراب ! بين ألف رجل من رجال بيتنا ،  
ومن أفراد الشعب أيضا ، للأسف ، يصعب أن تجد واحدا لم  
يتزوج ، قبل زفافه ، عشر مرات على الأقل ، ان لم يكن مائة مرة ،  
أو حتى ألف مرة ، كدون جوان مثلا ، صحيح أنك تلقي في هذه  
الأيام ، كما أسمع عن ذلك وكما أستطيع أن لاحظته ، شيابا طاهرين  
حساسين يدركون أن الزواج ليس مزاحا ، بل شيئا خطير الشأن •  
« اني لأسأل الله أن يسد هؤلاء الشباب بعون من عنده • ولكنك  
لم تكن تستطيع في أيامنا نحن أن تجد واحدا من هؤلاء بين عشرة  
آلاف شخص • ان الناس جميعا يعرفون ذلك ويتظاهرون بأنهم  
يجهلون • ان جميع الروايات تصف عواطف ابطالها في كثير من  
الاسهاب والتفصيل ، وتصف الغدران والادغال التي تجول حولها  
هؤلاء الأبطال ، ولكنها اذ تتحدث عما شعر به البطل من حب عظيم  
نحو فتاة من الفتيات ، لا تقول لنا أبدا ماذا كان هذا البطل المحب

قبل ذلك ، لا تذكر لنا شيئا عن زيارته لبيوت الدعارة ، ولا عن علاقته بالخدمات والطباخت ، وحتى بزوجات الآخرين . وإذا وجدت روايات قليلة النجاء كهذه ، فإن تداولها يمنع عن يجب عليهن أن يقرأنها قبل غيرهن ، أعني عن الفتيات . إن الناس يتظاهرون أمام الفتيات بأنهم يعتقدون بأن الدعارة لا وجود لها ، مع أن هذه الدعارة تستغرق جزءا كبيرا من حياة مدنا وقرانا . ثم يبلغ الناس من شدة التعود على هذا الاخفاء أنهم يأخذون يعتقدون صادقين بأنهم على جانب عظيم من الخلق ، وأنهم يعيشون في عالم طاهر ، مثلهم في ذلك مثل الانجليز . فإذا بالفتيات - هاته الشقيات - يصدقن ذلك جادات . هذا ما كانت تعتقده زوجتي المسكينة .

« أذكر اني أثناء الخطوبة قد أظهرتها على يومياتي التي يمكن أن نطلع منها على طرف من ماضي في أقل تقدير ، وأن تعرف آخر علاقة من علاقاتي خاصة . ذلك أنها كان يمكن ان تسمع شيئا عن هذا من الناس ، ولهذا كان لا بد من أن أقص عليها ذلك . ما أنزال انذكر ما ظهر عليها من ذعر وحزن وبأس حين فهمت . واعتقدت في تلك اللحظة أنها أرادت أن تهجرني لماذا لم تفعل ذلك ؟ »  
قال هذا ، ثم ضحك ، وشرب جرعة من الشاي ، وسكت .

## ٦

ثم هتف قائلا : « على كل حال ، هذا أفضل . هذا أفضل . »  
« لم يقع لي الا ما أستحقه . ولكن الأمر ليس هو هذا . »  
لقد أردت أن أقول أن هاته الفتيات التمسبات هن اللواتي يخذعن في مثل هذه الحالات . والأمهات ، خاصة أولئك اللواتي رباهن أوواجهن يعرفن ذلك حق المعرفة . فإذا تظاهرن بأنهم يعتقدون

بظهاره الرجال ، كن في واقع الامر يتصرفن تصرفا آخر . انهن يعرفن كيف يجتذبن الرجال اليهن ، والى بناتهن ايضا ، فحنن ، معشر الرجال ، لانعرف ، ماذلك الا لاننا لا نريد أن نعرف ان العاطفة المنزهة الشعرية التي نطلق عليها اسم الحب لاتوقف على مزايا روحيه ، بل على شيء جسدي صميم ، على تسريحة شعر ، على لون ثوب ، على تفصيلة رداء . أما النساء فيعرفن ذلك حق المعرفة . اسأل امرأة مغناجا خيرة تريد أن تفتن رجلا ، ولسألها أي الخطرين تؤثر أن تتعرض له : أن تهتم أمام الرجل الذي تريد أن تغريه بأنها كاذبة أوقاسية أو حتى داعر أم أن تظهر لهذا الرجل في ثوب بشع رديء التفصيل ؟ ان أية امرأة تؤثر الحل الاول مافي ذلك شك .

فهي تعرف أن كل رجل يكذب حين يتحدث عن عواطفه الرفيعة وأن الحب وحده هو الذي يجذبه ، وأنه سيففر من أجل الجسد كل الداء ، ولكنه لن يتساهل في أمر ثوب دميم لا ذوق فيه . ان المرأة المغناج تعرف ذلك معرفة كاملة ، والفتاة البريئة تحس بهذا الشيء نفسه احساسا لا شعوريا كالحيوانات سواء بسواء . ومن ثم نرى هذه الانواع الحريرية الهفافة الفطية ، ونرى هذه الغلالات الشفيفة ، ونرى هذه الأكثاف ، والأذرع ، والنحور والأنداء التي يوشك أن تكون عارية . . . ان النساء ، خاصة أولئك اللواتي نشأن في مدرسة الرجال ، يعرفن حق المعرفة أن الأحاديث التي تدور على موضوعات رفيعة ليست الا أحاديث ، أما الرجل فهو في حاجة الى اللحم والى كل ما يظهر هذا اللحم في صورته الخادعة الفاتنة . وهذا بعينه هو ما يقع . ويكفي أن نبتذ هذا الرجس الذي أصبح لناطبيعة ثانية . وان ننظر الى المجتمع الراقي كما هو في كل عهده ، حتى نرى أنه ميت من بيوت الدعارة حقا . ألا توافقني على هذا الرأي ؟

طرح هذا السؤال ثم قاطعني قائلاً :

- اسمح لي أن أبرهن لك على صدق هذا الرأي • أنت تقول ان للنساء في بيئنا اهدافا غير أهداف النساء اللواتي في بيوت الدعارة • وأنا أقول لا ، وسأبرهن لك عن صحة دعواي • اذا اختلف الافراد بسبب هدفهم ووجودهم وحياتهم الداخلية ، فان هذا الاختلاف لا بد أن يؤثر في مظهرهم الخارجي • فانظر اذن الى هاته النسوة الشقيات المحترقات وأنظر من جهة ثانية الى نساء أرقى طبقات المجتمع : الأتري أثوابا واحدة ، وأزياء واحدة ، وعطورا واحدة ، وعريا واحدا في الأكتاف والنحور والأنداء ، وبروزا واحدا في الاليتين يلفهما الثوب اللاحق بالجسم ، وميلا واحدا الى الحصى الصغيرة ، والأشياء الثمينة البراقة ، وحبا واحدا لتسليسات بعضها كالرقص والموسيقى والغناء •

ان الأوليات يجتذبن الرجال بكل الوسائل ، كالأخريات سواء بسواء • لا فرق بين الطائفتين • حتى نستطيع أن نقول اذا شئنا الصراحة في الكلام اننا نحترق من هن مومسات الى حين قصير ، ونحترم من هن مومسات الى حين طويل •



- نعم لقد سقطت اذن أمام فتنة أثواب الحرير وشفائر الشعر • ولم يكن هذا بالأمر الصعب ، لأنني نشأت في ظروف سهل تفتح الغرام ، كما تسهل بيوت الزجاج تفتح النباتات • ان زيادة في الغذاء الذي يشيع الحرارة في الجسم ، وكذلك العطالة الجسمية التامة التي تعيش فيها ، كل ذلك لم يكن الا اثارة دائمة للجسد قد يدهشك هذا الكلام ، ولكنه يعبر عن الواقع •

لقد ظلمت أجهل أنا نفسي هذا الواقع حتى الأوقات الأخيرة  
أما الآن فأنسى أراء رؤية واضحة • ومن اجل ذلك انما يؤلني  
أن أرى اسانا لا يعرف هذا الواقع ، وأن يعرف الناس بسخافات  
كسخافات تلك السيدة التي كانت تتحدث هنا منذ قليل •  
• في الربيع كان عدد من الفلاحين يعملون في تسوية حصي  
السكة الحديد قرب مزدعني • ان الطعام الذي يتناوله فلاح من  
الفلاحين عادة هو الخبز والبصل • والفلاح يعيش بهذا الطعام  
قوي الجسم صحيح العافية ، ويقوم بعمله في الحقول • فاذا اشتغل  
في أعمال السكة الحديد كان طعامه اليومي نصف كيلو من اللحم  
وجريش القمح • ولكنه يتفق هذا المقدار من الطعام في عمله ست  
عشرة ساعة من اليوم محركا عجلة وزنها ثلاثون كيلو • هذا  
طبيعي • أما نحن الذين يتلعب أحدنا كيلو من اللحم وشيئا من الطير  
والسمك وأطباقا أخرى ساخنة ومقادير كبيرة من الشراب ، فكيف  
تتفق هذا الطعام كله ؟ انا نتفقه افراطا في ملذات الحس • وسعيد  
ذلك الذي فتح له بصم الأمان هذا • أما من أوصد له ، كما  
فعلت أنا خلال فترة من الوقت ، فسرعان ما تنشأ عنده تلك الحماسة  
التي اذا مرت أشعتها في موشور حياتنا المصطنعة ، صارت الى غرام  
من أظهر الغرام • غرام أفلاطوني في بعض الأحيان • لقد أصبحت  
عاشقا كما يصبح كثير من الناس عشاقا • ونجح كل شيء : النبوة ،  
والحنان والشعر • والحق أن هذا الفسق لم يكن الا ثمرة شيئين :  
نشاط الأم والخياطات من جهة ، وفراغ الحياة وكثرة الطعام من  
جهة أخرى • فلولا تلك النزعة في القارب ، ولولا الخياطة ، أي  
بوقيت زوجتي في المنزل مرتدية ميذلا بشعا ، ولو كنت من جهتي  
أعيش في ظروف سيوية ، أي لو كنت لا أتناول من الطعام الا ما أنا  
في حاجة اليه للعمل ، ولو كان صمام الامان عندي مفتوحا لا موصدا  
عرضا ، لما عشقت ، ولما وقع شيء مما وقع •

ولكن كل شيء حدث في آن واحد : حالتني أنا ، والثوب الجميل ، والنزهة في القارب . لقد أمكن الافلات من هذا عشرين مرة . وكان لا بد أن يقع ذلك المساء . انه أشبه بفتح . لست أمزح . ان الزواج يدبر الآن كما يدبر فتح . هذا طبيعي أليس كذلك ؟ ان الفتاة تصبح ناضجة للزواج ، فلا بد من تأمين الاستقرار لها . ومن السهل تأمين زواج للفتاة حين لا تكون دمية وحين يكون هناك رجال واغبيون في الزواج ! كان يحدث هذا حتى في الزمان القديم . فمتى بلغت الفتاة سن الزواج دبر أهلها تزويجها . والانسانية كلها ما تزال تفعل هذا الى الآن : الصينيون والهنود والمسلمون والشعب في بلادنا . ان تسعة وتسعين في المائة على الأقل ، من أفراد النوع الانسانية يتزوجون هذا النهج . وليس ثمة الا واحدا في المائة ، ان لم يكن أقل من ذلك ، وجد أن هذا أمر سيء فابتدع شيئا جديدا ، وهذا الواحد هو معشر الفاسقين . ولكن ما هو الجديد الذي ابتدعناه ؟ أن تنتظر الفتيات ، بينما يطوف الرجال بينهن ويختارون منهن كأنهم في سوق . انهن ينتظرن وكأن الواحدة منهن تقول : « أنا أنا يا عم ! أنظر الى كفتي والى غير كفتي . . اني خيرهن جسيما . » ولكنهن لا يجرؤن على أن يقلن هذا صراحة . أما نحن الرجال ، فيقول واحدنا لنفسه مسرورا كل السرور : « لن يغرب بي ، لن أقع في الفخ . » انه يتجول وينظر ، ويسره أن يرى كل شيء قد نظم من أجله . فاذا لم يحتط للأمر ولم يحاذر وقسع في الفخ .



قلت له :

- ولكن ما الذي يجب أن يعمل • هل على المرأة نفسها أن تطلب من الرجل أن يتزوجها ؟

- لا أعرف حلا ، ولكن اذا كان الأمر أمر مساواة ، فيجب أن تكون هذه المساواة واقعية • اذا كنت ترى أن السعي الى الزواج يحط من القدر ، فان الحالة الراهنة تحط من القدر أكثر من ذلك ألف مرة • ان الحقوق والفرص تتساوى في السعي الى الزواج ، أما هنا فالمرأة رقيق في سوق أو طعم في فنج • لو قلت لأي أم أو لأي فتاة أن همها الوحيد هو اجتذاب خطيب ، لعدت ذلك منك اهانة ما بعدها اهانة • ومع ذلك فالأم والفتاة لا تفكران الا في هذا ، ولا يشغل بالهما الا هذا • ان أقطع شيء هو أن جميع الفتيات تطارد الرجل هذه المطاردة لاصطياده • وليت هذه المطاردة تتم صريحة سافرة ••• لا لا ، ان ذلك كله ليس الا كذبا ورياء ••

« آه ما أجمل نظرية دارون ! ان ليلى تهتم كثيرا بالتصوير ! هل تأتي الى معرض الرسم ! انه مفيد جدا ! ثم النزاهات في الترويكاء وشهود المسرحيات ، وسماع السمفونيات ! ان ليلى مجنونة بالموسيقى • لماذا لا تشارك في هذا الاداء ؟ ثم النزاهات في القارب ! ووراء هذا كله تكمن فكرة واحدة : تزوجني ، تزوج بنتي ليلى ! جسرب قليلا • »

قال ذلك كله ثم أضاف : آه من الكذب !

وبعد أن شرب آخر قهقين من الشاي ، أخذ يرتب الفناجين والآية •

ثم بدأ يقول وهو يرتب الشاي والسكر في كيسه :

- انك تعلم ان ما يشكو منه جميع الناس من سيطرة النساء تلك انما مرده الى هذا •

قلت :

— أي سيطرة تعني ؟ ان القوانين في جانب الرجال ••

فقاطعني يقول :

— نعم ، نعم ، هذا صحيح • وما ذكرته لك منذ هنيهة يفسر هذه الواقعة العجيبة ، وهي أن النساء مذلة الى أبعد حدود الازلال من جهة ، وأما هي التي تحكم وتسد من جهة اخرى • مثلهن في ذلك مثل اليهود ، فكما يثار اليهود بسيطرة المال مما يعانون من ذل ومهانة ، كذلك تفعل النساء • يقول اليهود : ها ••• انكم تريدون أن لا نكون الاتجارا •• • فاعلموا اذن أننا نعشر التجار نملك زمامكم ونسيطر عليكم • وتقول النساء : ها •• انكم تريدون أن لا نكون الامتاع ولذة ••• فلسوف نستعيدكم اذن بهذا نفسه •• ليس حرمان المرأة من الحقوق أنها لا تستطيع أن تقترح في الانتخاب، ولا أن تكون قاضيا من القضاة — ان الاهتمام بهذه الشؤون ليس حقوقا — وإنما حرمان المرأة من الحقوق أنها لا تستطيع أن تكون مساوية للرجل في العلاقات الجنسية ، أنها لا تملك حق اختيار الرجل أو الامتناع عنه ، بدلا من أن يختارها الرجل • فان قلت ان هذا عار قلت ان الرجل لا يجب كذلك أن يتمتع بهذه الميزات • ان المرأة محرومة الان من هذا الحق الذي هو وقف على الرجل • فلكني نعوض عن هذا الحق ، تؤثر في شهوة الرجل ، ونخصمه لنفسها اخضاعا تاما فما يكون له من الاختيار الا ظاهره ، وإنما يكون الاختيار لها في حقيقة الأمر • ومتى ملكت المرأة هذا المخرج أسرفت في

اللجوء اليه والاعتماد عليه ، وكان لها على الرجال سلطان رهيب .  
قلت :

- أين ترى هذا السلطان ؟

- أين أرى هذا السلطان ؟ في كل شيء ، في كل أمر .  
لطف على المخازن في مدينة كبيرة . أن هناك ملايين المخازن ، لا  
تستطيع أن تقدر ما أنفق من جهد وعمل ، فهل ترى في تسعين  
من مائة منها شيئاً مما يستعمله الرجل ؟ إن جميع ترف الحياة مزودة  
للنساء ، مؤمن لهن . عدد المصانع ! إن جزءاً كبيراً منها ينتج أشياء  
لا فائدة فيها : مركبات للنساء ، ألباناً للنساء ، أدوات زينة للنساء .  
إن ملايين الرجال إن أجيالاً من العبيد تضي في المصانع فناء المحكوم  
عليهم بالاشغال الشاقة ، لا لشيء إلا إرضاء نزوات المرأة . إن عشر  
النوع الانساني تستعبده النساء ، كما تستعبد الملكات العبيد ، وتفرض  
عليه العمل المرهق المضي . كل ذلك لأننا قد أذلناهن ، إذ حرمانهن  
من الحقوق التي يملكها الرجل ، فإذا هن يتقمن لأنفسهن بالتأثير  
في شهوتنا لاجتذابنا اليهن . نعم ، هذا مصدر كل شيء .

« لقد بلغت النساء من اتخاذ أنفسهن أداة اغراء وتحريض  
للسهوة أن الرجل لا يستطيع أن يعاملهن رابط الجأش هادئاً فمتى  
اقترب الرجل من امرأة ، افتن بها وطاش صوابه . كان يشق على  
أن أرى امرأة في ثوب حقلة راقصة ، أما الآن فأصبح ذلك يخيفني ،  
وأصبحت أراه شيئاً خطراً ، شيئاً مخالفاً للقانون ، حتى ليخطر بآلي  
أن أستجد برجل من رجال الشرطة ليحميني من هذا الخطر ، ليزيل  
هذا الخطر عني . لماذا تضحك ( قال ذلك صارخاً ) . انني لا أمزح .  
وأنا على يقين من أن الرجال سيدركون هذا في يوم من الايام ،  
وربما في يوم قريب ، فيدهشون عندئذ من وجود مجتمع كهذا  
المجتمع الذي يسمح بمثل هذه المخالفات التي ترتكب في حق الراحة

العامه ، أعني هذه الاثارة المباشرة للشهوة عن طريق تزويج النساء  
أجسادهن . ان ذلك يشبه نصب الفخاخ في طريق الناس أثناء  
النزهات ، بل هو أسوأ من ذلك ! لماذا تمنع الحكومة المقامرة ، ولا  
تردع النساء اللواتي يشرن تبرجهن الشهوة ؟ انهن أخطر من المقامرة  
ألف مرة ! »

١٠

« نعم ، بهذه الطريقة أوقعت في الفخ . لقد أصبحت عاشقا .  
لم أتصورها ذروة الكمال فحسب ، بل تصورت نفسي كذلك أيضا  
طوال فترة الخطوبة . فما من ووش من الأوباش الا ويستطيع اذا  
احسن البحث والتقصي أن يجد أوباشا آخرين يفوقونه حقارة من  
نحية من النواحي ، فيشعر من ذلك بشيء من الكبرياء والاعتزاز ،  
ويرضى عن نفسه . ذلك ما حدث لي أنا : ان زواجي لم يكن قائما  
على حب المال ، كزواج كثير من معارف الذين تزوجوا طمعا في  
مال أو طمعا في علاقات اجتماعية عالية ، فأنا غني وهي فقيرة . هذا  
عامل من العوامل التي جعلتني أزهد نفسي وأرضى عنها . وأما  
العامل الثاني فهو أن الآخرين كانوا يتزوجون وهم ينوون أن يستمروا  
بعد الزواج على أن تكون لهم صلات بنساء أخريات ، أما أنا فكنت  
أبوي أن أقف نفسي على زوجتي لا أخونها ، ولا أفكر في غيرها .  
وكان هذا يجعل زهدي عظيما لحدود له . نعم ، لقد كنت خنزيرا  
طبعيا ، وكنت أظن نفسي ملاكا .

« ولم تطل فترة الخطوبة . انني لا أستطيع أن أتذكر الآن  
فترة الخطوبة تلك دون أن أشعر بالحجل والعار . يا للدناءة ! اننا  
منى بكلمة الحب حبا روحيا لا شهوانيا . والعلاقة الروحية ينبغي

أن تعبر عن نفسها بكلام وحديث • ولكن لاشيء من هذا هنسا  
البتة • كان يصعب علينا ، حين نخلو أن نتحدث • كان الحديث  
عملا يشبه عندنا عمل سيزيف • كنا نخترع شيئا نقوله ، فإذا قلناه  
عدنا الى الصمت لنخترع شيئا آخر ، وهكذا دواليك • لم يكن ثمة  
موضوع نتحدث فيه • كل ما كان علينا أن نقوله عن تنظيم حياتنا  
الآتية ، وعن مشاريعنا للمستقبل ، قلناه بسرعة • ثم ماذا ؟ لو كنا  
حيوانات ، لعرفنا أنه ليس علينا أن نتكلم • ولكننا لسنا حيوانات ،  
فكان يجب أن نتكلم ، وليس هناك ما نتكلم فيه ، لاننا كنا مشغولين  
بأشياء أخرى غير التي يمكن أن يعبر عنها بأحاديث • أضف الى  
ذلك تلك العادة الفظيعة ، عادة تقديم السكاكر • انها شرهة مبتذلة •  
وانظر الى جميع تلك الأمور التي تهيب للزواج : اننا لا نتحدث الا  
عن البيت ، وحجرة النوم ، والأسرة ، وغلالات النوم ، وأتواب البيت  
وقمصان الزينة • ذلك اننا لو تزوجنا على طريقة دومستري - كما  
قال ذلك العجوز - لما كانت الرياش ، والبائنة ، والسريرات التفصيلات  
ثانوية • ولكن اذا كان تسعة عسلى الأقل من عشرة متزوجين  
لا يؤمنون عندنا حتى بالقربان المقدس وانما يفعلون ما يفعلونه انصياعا  
لواجب ، ولا تكاد تجد واحدا من مائة منهم لم يتزوج قبل الزواج ،  
ولا واحدا من خمسين منهم غير مستعد لخيانة زوجته متى سنحت  
الفرصة ، اذا كان معظم الناس لا يعبدون الذهاب الى الكنيسة الا  
المشروط اللازم لامتلاك امرأة معينة ••• فانظر اذن أي معنى قطع  
يمكن أن يكون لجميع تلك التفصيلات ! ان ذلك كله يدل على أننا  
بصد شيء يشبه أن يكون صفقة بيع • انهم يبيعون فتاة بريئة لرجل  
فاسق ، ويحيطون هذا البيع ببعض الشكليات ••

- جميع الناس يتزوجون على هذا النحو • وتزوجت أنا على  
هذا النحو ، وبدأ شهر العسل الذي يطرونه اشد الاطراء • يالها  
من تسمية فاحشة !

بهذا زفر زفرة سيئة • ثم أضاف يقول :

« كنت ذات مرة بباريز ، فقرأت اعلانا يتحدث عن امرأة ذات  
صحية وعن كلب مائي ، فذهبت لأرى المرأة ذات اللحية والكلب  
المائي ، فلم أر الا رجلا يرتدي ثوبا نسائيا خليعا ، والا كلبا ألبس  
جلد حيوان بحري وأخذ يسبح في مسبح •

« كان ذلك كله شيئا تافها ، ولكن الدليل صحبني عند الخروج  
متأدبا متلطفا ، فقال للجهور مشيرا الي : « اسألوا هذا السيد ، ألا  
ستحق الذي رآه أن يرى ؟ أدخلوا ، أدخلوا أيها السادة ، فرتك  
واحد » • فاستحييت أن أعترف بأن ما رأيته لا يستحق أن يرى ،  
وكان صاحبنا يعتمد على عاطفة الحياة هذه • لعل هذا يصدق أيضا  
على أولئك الذين ذاقوا بشاعة شهر العسل ، ولكنهم لا يرون أن  
يبددوا أوهام الآخرين • أنا أيضا لم أشأ أن أبدد أوهام أحد •  
ولكنني لا أرى الآن لماذا يجب أن لا أقول الحقيقة ! أنني لأشعر  
الآن أن من واجبي أن أعلن هذه الحقيقة ! لقد أحسست بما يشبه  
احساسي حين تعلمت التدخين : حين تعلمت التدخين كنت أحس  
برغبة في التقيؤ والبصاق ، ولكنني كنت أبلغ لعابي متظاهرا بأن  
التدخين لذيد جدا • ان اللذة التي يشعر بها المرء حين يدخن تأتي  
فيما بعد ، اذا كان لا يد أن تأتي يوما : وكذلك اللذة في الحالة  
التي كنت فيها : ان على الزوج أن يعود زوجته على هذه العادة  
السيئة ، كي يستمتع بها • »

قلت :

- كيف تسمي ذلك عادة سيئة ؟ انك تتحدث عن شيء طبيعي  
من مميزات الكائن الانساني !  
فاجاب بقوله :

- طبيعي ؟ اعلم أنني على يقين من أن هذا الشيء غير طبيعي .  
البتة . اسأل عنه الاطفال ، او اسأل عنه فتاة طاهرة ! لقد تزوجت  
أختي في سن صغيرة جدًا من رجل فاسق عمره ضعف عمرها .  
أنني ما أزال أذكر الدهشة التي أصابتنا حين جاءت بنا ليلة الزواج  
هارية من مخدع العرس ، مشاحبة الوجه ، غارقة في الدموع ، مرتجفة  
من أخمص القدمين الى قمة الرأس ، قائلة انها لا تستطيع على أية  
حال من الأحوال حتى أن تحكي لنا ما كان يريد بها . أبعد هذا  
تقول ان ذلك شيء طبيعي ؟ طبيعي أن يأكل المرء . فالأكل لذيق .  
سهل ، ممتع من البداية الى النهاية ، وليس فيه ما ينجل ، أما هنا  
بكل شيء فاحس مخجل مؤلم . لا ، لا ، ليس ذلك بالشيء الطبيعي !  
لقد أيقنت بأن الفتاة الطاهرة تكره دائما هذا الامر .  
قلت :

- وكيف يمكن ان يستمر النوع الانساني بدونه ؟  
فقال بلهجة خيثة ساخرة وبنية سيئة سافرة ، كأنه كان ينتظر  
هذا الجواب المعروف :

- ها . . . نعم . . . ضياع النوع الانساني ! حين تنصح بالامتناع  
عن انجاب الأطفال يستطيع اللوردات الانجليز أن ينتفخوا طعاما ،  
فذلك ممكن ، وحين تنصح بذلك الشيء نفسه زيادة للذة فهذا ممكن  
أيضا ، ولكن حاول أن تنصح بذلك الامتناع باسم الأخلاق تهمر  
عليك الاحتجاجات من كل حذب وصوب ! . . . كأن النوع الانساني  
يمكن أن ينقطع عن الوجود متى أبي عشرة رجال أو عشرون رجلا

أن يكونوا خنازير • أستمحيك العذر مع ان هذا النور يزعجني ،  
هل أستطيع أن أطقه ؟

قال هذا وهو يشير الى المصباح • فأجته بأني يستوي عندي  
أن يبقى النور مشتعلأ أو يطفأ ، فهب واقفا على المقعد بسرعة ،  
على عادته ، وأسدل ستارة الصوف على المصباح •  
قلت :

— مع ذلك ، لو أن جميع الناس اتخذوا من هذا قانونا ، لما  
بقي النوع الانساني •

فلم يجب فورا ، ولكنه قال وهو يجلس أمامي وجها الى وجهه ،  
وياعد ما بين ساقيه ، ويسند كوعيه الى ركبتيه :

— تسألني كيف يستمر النوع الانساني • ولكن لماذا يجب أن  
يستمر النوع الانساني على البقاء ؟

— لماذا ؟ لأننا بدون ذلك لا يمكن ان نوجد !

— فلماذا يجب أن نوجد ؟

— لماذا يجب أن نوجد ؟ لكي نعيش !

— ما هو هدف الحياة ؟ اذا لم يكن ثمة هدف ، واذا كنا  
لا نعيش الا لنعيش ، فلا داعي الى الوجود • واذا كان الأمر كذلك ،  
فان شوبنهاور ، وهارتمن ، وحتى البوذيين ، على حق • أما اذا كان  
للحياة هدف ، فواضح عندئذ أن الحياة يجب أن تقطع عن الاستمرار  
متى تحقق ذلك الهدف • هذه هي النتيجة الوحيدة الممكنة •

قال ذلك مضطربا ، وكان واضحا أنه يحرص على هذه الفكرة  
أشد الحرص • وأردف بكرر قوله :

— نعم ، هذه هي النتيجة الوحيدة الممكنة • لاحظ أن هدف  
الانسانية — الحسنات ، أو الخير ، أو الحب ، أو ما شئت فسمه —  
اذا كان الهدف الذي يتحدث عنه الانبياء : أي أن يجتمع البشر



جميعا على الحب وأن يصنعوا من رماحهم مئاجل ، فما الذي يحول  
دون تحقق هذا الهدف ؟ انها الأهواء ؟

• ولا شك ان الحب الجنسي الجسدي أقوى هذه الأهواء  
وأسوأها وأعندها وأشرسها ، فاذا زالت هذه الأهواء يوما ، وزال  
معها ذلك الهوى الاخير ، فان النبوة يمكن عندئذ أن تتحقق ، فيلتقي  
الناس على المحبة ، وتبلغ الانسانية هدفها ، فلا يبقى ما يدعو الى  
استمرار الحياة • اما ما ظلت الانسانية حية ، فان لها مثيلا أعلى  
تسبو اليه ، وطبيعي أن هذا المثل الأعلى الذي تسبو اليه الانسانية  
لن يكون المثل الأعلى الذي تهدف اليه الأراب ، ولا الخنازير ،  
وهو أن تتكاثر بأقصى سرعة ممكنة ، لا ولن يكون المثل الأعلى الذي  
بتطلع اليه القرود أو الباريزيون الذين يريدون أن يستخرجوا من  
هوى الجسد كل ما يستطيعون أن يستخرجوا منه من تفضن ، وانما  
سيكون المثل الأعلى الخلفي الذي يتحقق بالعفة والطهارة • ولقد  
جنح البشر الى هذا المثل الأعلى دائما • فانظر ماذا ينتج عن ذلك :  
• ينتج عن ذلك أن الحب الجسدي يصبح صمام الأمان •  
اذا لم يبلغ الجيل الراهن هدفه ، فذلك يرجع الى أهوائه وحدها ،  
والحب الجسدي أقوى هذه الأهواء • واذا وجد الهوى الجسدي ،  
وجد جيل جديد ، ووجد احتمال بلوغ الهدف في الجيل التالي •  
فاذا لم يبلغ هذا الجيل الهدف ، جاء دور الجيل الذي يليه ، وهكذا  
دواليك ، الى ان يتحقق الهدف وتصدق النبوة ، أي الى ان يلتقي  
الناس • فاذا لم يكن الأمر كذلك ، فما الذي يحدث ؟

• اذا سلمنا بأن الله خلق البشر لبلوغ هدف ما ، فلقد كان عليه  
اما أن يجعلهم فانيين بلا هوى جسدي واما أن يجعلهم خالدين •  
فما الذي يمكن أن يحدث في الحالة الاولى ؟ الذي يمكن أن يحدث  
في الحالة الاولى أن البشر يعيشون ويموتون دون أن يبلغوا الهدف ،

ويكون الله مضطرا عندئذ الى أن يخلق أناسا آخرين • أما اذا جعلهم خالدين ، وسلمنا ( رغم أن من الاصعب على بشر بأنفسهم وعلى أجيال جديدة أن تصلح من شأنها وأن تقترب من الكمال ) بأنهم سيبلغون الهدف بعد عدة آلاف من السنين ، فإن من حقنا أن نتساءل: فما الداعي الى وجودهم عندئذ؟ وأين نذهب بهم في مثل هذه الحالة؟ ألا ان الوضع الراهن لأفضل • لعل هذه الصورة من التعبير لا ترضيك ، ولعلك من القائلين بمذهب التطور • ولكن الأمر عندئذ لا يختلف • فان النوع الانساني ، وهو أرقى أنواع الحيوان ، يجب عليه ، من أجل أن يبقى في صراعه مع الحيوانات الأخرى ، أن يتجمع تجمع خلية النحل ، بدلا من أن يتكاثر الى غير نهاية : يجب عليه ، كالنحل ، أن ينشيء أفرادا لاجنس لهم ، أي أن يحاول العفة ، بدلا من أن يثير الجسد هذه الأثارة التي يتجه اليها نظام حياتنا كله •

قال ذلك وسكت • ثم أضاف يقول :

« سيزول النوع الانساني • هل في الدنيا كلها انسان يشك في هذا ، مهما يكن رأيه • ان هذا أمر لا ريب فيه ، كالموت سواء بسواء • جميع التعاليم الدينية ، وجميع الدراسات العلمية تؤكد ان ذلك أمر لا مناص منه • فلماذا يدهشنا أن تؤدي الأخلاق الى هذه النتيجة نفسها ؟ »

قال ذلك ، ثم صمت مدة طويلة • أنهى تدخين سيجارته ، ثم سحب من كيسه سجائر أخرى ، ورتبها في علته القديمة القذرة • قلت :

— انني أفهم رأيك ، والشيكركز يقولون هذا القول نفسه •  
— نعم ، نعم ، انهم على حق ، هم ايضا • ان الهوى الجسدي شر في جميع الأحوال • انه شر رهيب يجب أن نحاربه ، بدلا من أن

نحميه ، كما فعل في بلادنا • ان كلمات الانجيل التي تقول بأن  
كل من نظر الى امرأة لاغرائها فقد زنا بها ، لاتصدق على زوجات  
الأخرين وحدهن ، بل تصدق على زوجاتنا أيضا • »

## ١٢

- أما في بيتنا فالأمر ينقض ذلك • ان من لا يزال يرى  
وهو عازب ، أن عليه أن يعف ، يرى متى تزوج أن العفة لم تعد  
لازمة • ان سفر العروسين بعد الزفاف ، وما يؤمنانه لنفسهما من  
عزلة بموافقة الأهل ، ليس الا اذنا بالفسق • ولكن القانون الاخلاقي  
الذي يخترق ما يلبث أن ينتقم لنفسه بنفسه • لقد أخفقت المحاولات  
التي قمت بها لتنظيم شهر العسل • كت أشعر طوال الوقت بالعار  
والملل • وما لبث ذلك أن أصبح ألما حادا • ولقد بدأ كل شسي •  
بسرعة • يحيل الي أنني في اليوم الثالث أو الرابع ، رأيت زوجتي  
حزينة ، فسألتها عن سبب حزنها ، وقيلتها ، ظانا أن هذا هو كل ما  
كان يمكن أن ترغب فيه ، ولكنها أبعدت يدي وأخذت تبكي •  
لماذا ؟ لم تكن تستطيع أن تقول لماذا • ولكنها كانت تشعر بأنها  
حزينة متألمة • لعل أعصابها المجهدة قدأسرت اليها بالحقيقة عن دناءة  
علاقتنا • وكانت عاجزة عن التعبير عن ذلك • وسألتها فقالت انها  
في حين الى أمها • وبدا لي أن ذلك كذب • وحاولت أن أواسيها  
دون أن آتي على ذكر أمها • لم أفهم أن كل ما بها هو أن قلبها مثقل ،  
وأن الأم ليست الا ذريعة • ولكنها لم تلبث أن غضبت لأنني لم أشأ  
أن أحدثها عن أمها ، كأنني لم أصدقها • وقالت انها ترى أنني  
لا أحبها •

» فأخذت عليها أنها ذات نزوات ، فاذا بوجهها يتبدل تبديلا

كاملا على حين فجأة • لقد حل الحرق محل الحزن ، واتهمتي  
بالأنانية والقسوة ، وصبت علي أسوأ الكلمات • نظرت اليها • ان  
وجهها كله يعبر عن القنور ، والعداوة ، ويكاد يعبر عن البغض •  
كيف ؟ ماذا ؟ أين الحب ؟ أين التقاء الروحين وهذا  
هو ؟ قلت لنفسي : لا ، لا ، ذلك مستحيل ! انها ليست هي ! وحاولت  
أن أرقق قلبها ، ولكنني اصطدمت بحاجز من العداوة الباردة المسمومة ،  
لا يمكن التغلب عليه ، فلم أفيء الى صوابي ، وغضبت أنا أيضا ،  
وتبادلنا كلاما سيئا كثيرا • وترك هذا الشجار الأول في نفسي أثرا  
وانني لأسميه الآن شجارا ، وما هو في الحقيقة كذلك ، وانما اكتشاف  
الهوة التي تفصل أجدنا عن الآخر • لقد استنفدت اللذة الجنسية  
حنا ، فاذا العلاقات التي بيننا تعمرى : ما نحن الا شخصان غريبان  
يقف أحدهما أمام الآخر يريد أن يتلقى منه أكبر مقدار من اللذة •  
لقد أسميت ما وقع بيننا شجارا ، وما هو في حقيقة الامر  
بالشجار ، وانما هو نتيجة التوقف الموقت في علاقتنا الجنسية • ولم  
أفهم أن هذا القنور وهذه العداوة سرعان ما اختفت أمام هبة جديدة  
من هبات الشهوة • فاعتقدت أننا تشاجرنا ثم تصالحنا ، وأن ذلك  
لن يعود • ولكن في أثناء ذلك الشهر الأول نفسه ، حدثت ، بسرعة  
شديدة ، فترة جديدة من الشبع فأصبح كل منا لا يفيد الآخر  
فنشأ عن ذلك شجار جديد ، وقد أدهشني هذا الشجار الجديد أكثر  
مما أدهشني الشجار الأول • قلت لنفسي : اذن لم تكن الحادثة الأولى  
مصادفة من المصادفات ، وانما كانت أمرا لا بد أن يقع ، ولا بد أن  
تتكرر اذن هذه الحادثة • وقد زاد دهشتي في الشجار الثاني أنه  
انطلق بسبب تافه كل التافهة ، هو لوم على أمر يتصل بالمال الذي لم  
يكن من عادتي أن أخص به ، وخاصة على زوجتي • ولكنني أتذكر  
الآن أنها أدارت الامر على وجه جعل ملاحظة من ملاحظاتي تبدو

تعبيراً عن رغبتى فى السيطرة عليها بالمال ، فقالت اننى أقيم على المال  
ما أستأثر به من حقوق عليها • ان ذلك مستحيل ، انه غباء ، انه  
حقارة • انه ليس أمراً طبيعياً لا بالنسبة الى ولا بالنسبة اليها • فغضبت  
ولتها على هذه الخشونة ، فردت على ، واستؤنف كل شيء •  
ورأيت فى كلماتها ، وفى تعبير وجهها وعينها ، نفس العداوة القاسية  
الباردة التى فاجأتنى فى المرة الأولى • أتذكر اننى تشاجرت مع  
أخى ، ومع رفاقى ، ومع أبى ، ولكنى لا أعرف أن شيئاً من الشراسة  
المسمومة الخاصة قد ظهر يوماً فى مناقشاتى مع هؤلاء • وانقضت  
وقت ، فحلت حالة الحب والشهوة محل هذا البغض المتبادل ، وواسيت  
نفسى قائلاً : ان هذين الشجارين ليسا الا خطأ يمكن اصلاحه •  
ولكن الشجار الثالث وقع ، ثم وقع الشجار الرابع ، فأدركت أن  
الامر ليس مصادفة ، وأنه لا بد أن يقع ، وأنه سيتكرر دائماً •  
وذعرت من تصور ما يتظرني • ومما زاد عذابى أن فكرة رهيبه  
سيطرت على ذهني ، وهى أنى الانسان الوحيد الذى يعيش مع  
زوجته حياة سيئة هذا السوء كله ، وأن حياتى الزوجية لاتتفق مع  
ما كنت أتوقعه منها فى حين أن هذا لايقع للأسر الأخرى • كنت  
لا أعرف حتى ذلك الوقت أن هذا شأن جميع الناس ، وأن جميع  
الناس يتخيلون مثلى أنهم منفردون بهذا الشقاء ، ان جميع الناس  
يخفون هذا الشقاء الخاص المخزي لا عن غيرهم فحسب ، بل عن  
أنفسهم أيضاً ، ولا يجروون أن يعترفوا به •

« بدأ ذلك منذ الايام الأولى ، واستمر طوال الوقت ، وكان  
يزداد قوة وقسوة شيئاً بعد شيء • ولقد شعرت ، فى قرارة نفسى  
منذ الأسبوع الاول اننى ضعت ، وأنه قد وقع ما لم أكن انتظره ،  
وان الزواج ليس شقاء فحسب بل هو أمر أشقى من الشقاء • ومع  
ذلك لم أشأ أن أعترف بهذا لنفسى ، شأنى فى ذلك شأن سائر

الناس ( وما كنت لاعترف بهذا لنفسي الآن لولا ان الامر قد انتهى ) • واني لاستغرب اليوم كيف لم ادرك حقيقة وضعي حينذاك • وكان يمكن أن أدرك ذلك ، أن تلك المشاجرات كانت تقوم لاسباب يستحيل على المرء أن يتذكرها بعد انتهاء المشاجرة • كان العقل لا يتيح لاحد منا أن يعرف أسبابا كافية لما بينه وبين صاحبه من عداوة دائمة • وأعرب من ذلك أن الاسباب التي كانت تدفعنا الى المصالحة غير كافية أيضا • كانت هذه الاسباب في بعض الاحيان كلاما أو تعليلا أو دموعا •• ولكنها كانت في احيان أخرى •• آه •• علي أن أتذكر هذا الامر • نعم كانت الاسباب التي تدعونا الى التصالح في احيان أخرى ، بعد الكلام القاسي المر الذي تبادلناه •• نظرات وابسئامات وقبلات وعناقا صامتا ••• فجأة •• ثم الامر الشنيع على حين فجأة ؟ كيف يمكنني أن لأرى حقارة ذلك كله ! ••

### ١٣

دخل مسافران واخذا يستقران على مقعد بعيد • فصمت الرجل أثناء ذلك ولكنه ما ان أصبح صوتهما لا يسمع ، حتى استأنف حديثه دون أن يقطع تسلسله :

- ذلك أن أبشع ما يدعو الى القرف في هذا الامر اننا نعد الحب من الناحية النظرية شيئا مثاليا ساميا ، مع أنه من الناحية العملية قذارة يشمئز الانسان من أن يتذكرها ويخجل من أن يتذكرها • واذا كان الحب شيئا يبعث على الاشمئزاز والخجل ، فيجب أن يفهم على هذا النحو ، ولكن الناس يتظاهرون بأنهم يجدونه أمرا جميلا جميلا •

« ماذا كانت أولى علامات حبي ؟ كانت أولى علامات حبي أنني استسلمت للدفاعات الحيوانية •

المفرطة ، لا ينير حياة فحسب ، بل أيضا مع الاعتزاز بإمكان اقترافي  
لهذه الاندفاعات الحيوانية المفرطة ، دون ان أفكر أي تفكير لا في  
الحياة الروحية لزوجتي ولا في حياتها الجسدية . وكنت استغرب  
ما كنا نشعر به من خنق متبادل ، رغم أنه كان شيئا واضحا : فهاهو  
في الواقع الا احتجاج الطبيعة الانسانية على الحيوان الذي يخفها .  
كنت استغرب ما بيننا من بغض . ولكن هذا البغض كان في حقيقة  
الامر شيئا لا مناص منه . فما هو الا البغض الذي يتبادلته شريكا  
جريمة ، بسبب الجحش عليها والاسهام فيها . ألم تكن جريمة أن  
المسكينة أصبحت حلي منذ الشهر الاول ، واستمرت علاقتنا الحيوانية  
اتناء ذلك ؟

« انك تظن انني ابتعد عن قصتي ! الحق انني لا اهتم  
عنها أبدا . انني أروي لك كيف قتلت زوجتي . ولقد سئلت في  
المحكمة عن السلاح الذي قتلها به ! ألا ما أعياهم ! انهم يظنون انني  
قتلتها بسكين في اليوم الخامس من شهر تشرين الثاني ( اكتوبر ) .  
والواقع انني لم ارتكب جريمة في ذلك اليوم ، وانما ارتكبتها  
قبل ذلك بكثير ، تماما كما يعبرون هم جميعا جرائم القتل الان ،  
جنينا ، جميعا . . . . . »

كيف قتلها اذن ؟

- من الغريب أن أحدا لا يريد ان يعرف هذا الامر الواضح  
الجلبي الذي يجب أن يعرفه الأطباء وأن يذيعوه ، ولكنهم يسكنون  
عنه . انه أمر بسيط الى ابعد حدود البساطة . لقد خلق الرجل  
والمرأة كما خلقت الحيوانات ، فبعد العلاقة الجنسية يأتي الحمل ،  
ثم يأتي الرضاع ، والحمل والرضاع مرحلتان تكون العلاقة  
الجنسية اتناءهما مؤذية بالمرأة وبالطفل على السواء . وعدد الرجال  
والنساء واحد . فما الذي يترتب على ذلك ؟ الامر واضح . فليس

يحتاج المرء الى كثير من الحكمة حتى يستخرج من ذلك عين  
النتيجة التي تستخرجها الحيوانات ، وهي الامتناع عن الاتصال  
الجنسي . لقد توصل العلم الى اكتشاف مكروبات تسمى بالكريات  
البيضاء ، وتجري في الدم ، وتوصل الى اكتشاف سخافات أخرى  
أيضا ، ولكنه لم يفهم ذلك الامر البسيط الواضح ، أو قل على كل  
حال انني لم اسمع عن هذا ابدا .

« ليس هنالك بالنسبة الى المرأة الا حلال ؛ الاول هو ان تجعل  
من نفسها اسانا شادا ، أن تحطم في ذاتها قدرتها على أن تكون امرأة  
أي أما ، كما يستطيع الرجل أن يتمتع بها بهدوء واستمرار . والثاني ،  
وهو حل لا يمكننا حتى ان نسميه حلا ، لانه مجرد خروج فظ مباشر  
على قانون الطبيعة ، وهو ما نراه في جميع الاسر التي يزعمون أنها  
أسر كريمة ، هذا الحل الثاني هو أن تظل المرأة حاملا ومرضا  
وخليلة في آن واحد ، على خلاف الطبيعة ، وأن تهبط بذلك الى درك  
دون درك الحيوانات ومن الممكن عندئذ أن تخونها قواها ، ومن ثم  
نرى الهستريا والعصاب في بيئتنا ، ونرى النساء المسوسسات في  
ميثاق الشعب . لاحظ أن الفتيات لا يصبن بشيء من هذا ، وانما  
تصاب به النساء المتزوجات اللواتي يعشن مع أزواجهن . والامر  
على هذا النحو في أوروبا . ان جميع المستشفيات تفيض بنساء خرجن  
على قانون الطبيعة . واذا كانت المسوسسات وزبائن شاركو نساء  
مريضات تماما ، فان الدنيا تعج بنساء نصف مريضات . يجب أن  
تذكر عظمة الامر الذي يتم في المرأة حين تكون حاملا أو مرضعا .  
ان ما يتحقق فيها اثناء ذلك هو ما يكفل للانسانية أن تستمر . ونحن  
نعرقل هذا العمل المقدس ، وبماذا نعرقله ؟ انه لشيء فظيع ان أفكر  
في هذا الأمر ! ان الناس يتحدثون عن حرية المرأة وعن حقوق  
المرأة . ألا ان ذلك أشبه بما يمكن أن يفعله أكلة لحوم البشر



إذا هم علفوا أسراهم ليأكلوهم بعد ذلك، وأكدوا لهم في الوقت نفسه انهم يصونون لهم حقوقهم وحريتهم !

كان هذا الكلام كله جديدا علي ، فدهشت • قلت :

— فما العمل والحالة هذه ؟ في رأيك اذن أنه لا يجوز للرجل

أن يعاشر امرأته الا مرة كل سنتين ، في حين أن الرجل •••

— لا غنى له عن ذلك ••

« هذا زعم لطيف آخر من مزاعم كهنة العلم هؤلاء • ماعسى

يرى هؤلاء الجهابذة من رأي لو ألزمتهم أن ينهضوا بالواجب الذي

تنهض به النساء اللواتي هن في رأيهم حاجة لازمة للرجال ! انه

ليكفي أن تقول لرجل أن الفودكا والتبغ والأفيون حاجة لازمة له

حتى لا يستطيع أن يستغني عنهما بعد ذلك •

« ينتج عن هذا أن الله لم يكن يعرف ما يريد حسين خلق

العالم ، وانه خلق العالم خلقا سيئا لانه لم يسأل هؤلاء الفقهاء ان

يسدوا اليه بالنصح • انك لترى اذن أن الأمر لايسير سيرا حسنا •

لقد أفتوا بأن الرجل في حاجة الى ارواء شهوته ، ما من ذلك مضر ،

ولكن هذا الارواء تعوقه الولادة ويعوقه الارضاع ، فما العمل ؟

ليس علينا الا أن نسأل الفقهاء في هذا ، فيديروا الأمر أحسن تدبير •

وقد دبروه حقا • آه من هؤلاء الفقهاء •• متى نترلهم اخيرا عن

عروشهم وتتخلص من أكاذيبهم ؟ لقد آن الاوان • أنظر الى أين

وصلنا منذ الآن : ان المرء يجن أو يتحسر بسبب ذلك • وكيف

يكون الأمر على غير هذا النحو ؟ لكأن الحيوانات تعرف أن ذريتها

تكفل استمرار جنسها ، فهي تلتزم من أجل هذا قانونا • الا الانسان

لايعرف ذلك ولا يريد أن يعرفه • وانما هو يعني بلدته قبل كل

شيء • ومن ذا الذي يفعل هذا ؟ ملك الطبيعة ، الانسان • لاحظ

أن الحيوانات لاتعاشر الا حين تستطيع أن تنجب ، في حين أن منك

الطبيعة ، هذا الملك الفاسد ، يفعل ذلك بغير انقطاع ، متى وجد فيه  
لذة • وهو يريد فوق ذلك أن يطلق على هذا العمل الجدير بالقرود  
اسم الحب • وباسم هذا الحب - باسم هذه الرذيلة - ماذا نخسر؟  
نخسر نصف النوع الانساني • ان الرجل ، من أجل لذته ، يجعل  
جميع النساء اللواتي كان ينبغي أن يساعدن الانسانية في ارتقائها  
الى الحقيقة والخير ، يجعل منهن أعداء • أنظر ! من ذا الذي يعرقل  
وثبة الانسانية الى أمام ؟ النساء ! لماذا ! بسبب ذلك وحده • نعم ،  
نعم ، نعم •••

قال ذلك وأخذ يتحرك ، وفتح علبه سجائره ، وأخذ يدخن •  
كان واضحا أنه يريد من ذلك أن يهدي نفسه قليلا •

## ١٤

واستأنف يقول بتلك اللهجة نفسها :

- هكذا عشت كما يعيش خنزير • والافدح من ذلك انني  
كنت أتخيل ، وأنا أحياء تلك الحياة ، انني لكوني لا أغوي نساء  
أخريات ، أعيش حياة عائلية شريفة ، وانتي رجل متمسك بأهداب  
الإخلاق ، وأنني لا أقترف أي ذنب ، وأن ما كان يقع بيننا من  
مشاجرات انما يجب ان يعزى اليها ، الى سوء طبيعتها •  
واوضح انها لم تكن بالمذنبه • انها كسائر النساء ، انها كأكثر  
النساء • لقد نشئت كما ينبغي ان تنشأ امرأة في بيتنا بحكم الحالة  
التي هي فيها ، وكما نشئت جميع نساء الطبقة المسورة بلا استثناء •  
ان الناس يتحدثون الان عن ثقافة جديدة للمرأة : اكل هذا لغو ،  
ان تعليم المرأة يكون تماما على حسب الرأي الذي يقوم في اذهان  
الناس عنها •

« ان تعليم المرأة سيظل متناسبا مع رأي الرجل فيها • ونحن  
نعلم كيف ينظر الرجال الى المرأة : « خمر ، وامرأة ، وغناء » ،  
كذلك قال الشاعر في قصائده • أنظر الى الشعر كله ، والى التصوير  
كله ، والى النحت كله ، مبتدئا بقصائد الغرام وبتمثيل فينوس  
وبيرنيه عاريتين ، فماذا ترى ؟ ترى أن المرأة ليست الا اداة متعة :  
هي كذلك في تروبا وجرتشيفسكا (١) ، وفي أرقى سهرة من سهرات  
الطبقة الراقية • ذلك أن عليك أن تلاحظ مكر الشيطان : اذا كانت  
المرأة متعة فحسب ، لذة فحسب ، فيجب على المرء أن يعرف ذلك ،  
وان ينظر الى المرأة على أنها شيء يقتنى لا أكثر • ولكن لا • لقد  
كان الفرسان يقولون أنهم يؤلهون المرأة ( ربما كانوا يؤلهونها ،  
ولكنهم كانوا يؤلهونها كأداة متعة رغم ذلك ) والان يصرح  
الناس بأن عليهم أن يقدروا المرأة حتى قدرها وان يحترموها •  
الاولون يخلون لها مكساتهم ، ويتناولون المنديل من الارض  
اذا سقط منها ، والآخرون يعترفون لها بحق شغل جميع المناصب  
وحق الاشتراك في الحكم ، الى آخر ما هنالك • انهم يفعلون هذا ،  
ولكن الرأي يبقى واحدا لم يتغير • ان المرأة أداة متعة ، وجسدها  
هو الوسيلة الى بلوغ هذه المتعة • وهي تعرف ذلك أيضا • ان هذا  
لشبيه بالرق كل الشبه • ليس الرق شيئا آخر غير استغلال فرد من  
الافراد لعمل يجبر على القيام به عدد من الافراد • ولكي لا يوجد  
للرق يجب أن لا يرغب البشر في استغلال عمل يجبر آخرون على  
القيام به ، ويجب أن يعدوا ذلك خطيئة أو عارا ، فما الذي نراه  
الآن ؟ ان الصورة الخارجية للرق قد ألفت ، فأصبح لا يمكن بيع  
العبيد وشراؤهم ، والناس يخيلون تبعا لذلك أن الرق لم يبق له  
وجود ، ويقنعون أنفسهم بأن الرق قد زال • ولكنهم لا يرون أن

(١) من الضواحي الشعبية بموسكو •

الرق ما يزال قائما ، لأن البشر ما يزالون يحبون أن يستغلوا عمل الآخرين ، وما يزالون يرون في هذا أمرا مشروعا لا غبار عليه . ومتى رأوا أن ذلك خيرا لا ضير فيه ، فسيظل هنالك أناس أقوى من غيرهم وأمكر من غيرهم يستفيدون من ذلك ويتفحصون به .

والامر كذلك فيما يتصل بتحرير المرأة . وانما يقوم استرقاق المرأة على أن الرجال يريدون أن يتخذوها أداة متعة ، ويرون في ذلك خيرا لا اعتراض عليه . انهم يحرمون المرأة ، ويهبون لها حقوقا مساوية لحقوق الرجل ، ولكنهم يظلون يعدونها أداة متعة . تلك تربية ينشأ عليها الاطفال ويقرها الرأي العام . وبذلك تظل المرأة العبد الذليل الداعر ، ويظل الرجل ذلك التاجر ، تاجر الرقيق .

انهم يحرمون المرأة من أجل أن تستطيع متابعة الدروس في مجلس الجامعة من أجل أن تصبح نائبة في مجلس الأمة ، ولكنهم يظلون يرون انها موضوع لذة . واذا علمناها أن تنظر الى نفسها كما تنظر اليها نحن جميعا ، فستظل الى الأبد كائنا متخلفا ، أو أنها ، بمساعدة أطباء أشرار ، تتخذ الاجراءات التي تقيها من انجاب الأطفال ، فتصبح بذلك مومسا تنحط لا الى ادراك الحيوانات ، بل الى درك الاشياء ، أو أنها تصبح ما هي عليه في أكثر الأحوال ، اسلنا خفيف العقل ، مصابا بالهستيريا ، بانسا شقيا لا سبيل له الى نمو روحي .

« لا المدارس الثانوية ، ولا المحاضرات الجامعية بقادرة على أن تغير هذه الحال ، وما من شيء يستطيع تغييرها الا تغير رأي الرجال في المرأة ، وتغير رأي المرأة في نفسها . ولن يتم هذا الا حين ترى المرأة أن البكارة خير ، وأنها ليست عارا ولا فضيحة . والى أن يتحقق هذا ، فإن المثل الذي تصبو اليه كل فتاة ، مهما يكن حظها من الثقافة ، هو أن تجتذب اليها الرجال ، هو أن تجتذب اليها الذكور ، ليتاح لها أن تختار .

• ليس أمرا ذا بال أن تكون إحدى النساء عالمة بالرياضيات ،  
وأن تكون امرأة أخرى ماهرة في العزف على الهارب • إن المرأة  
تعد نفسها سيئة ، وتعد رغباتها متحققة حين تتوصل إلى اغراء رجل •  
لذلك كانت الغاية الأساسية التي تهدف إليها امرأة هي أن تجذب •  
هذا ما كان في الماضي وهذا ما سيكون في المستقبل •

• كذلك تجري حياة فتاة من بيتنا ، وكذلك تجري حياة  
امرأة متزوجة • تلك ضرورة قبل الزواج لاختيار الزوج ، وضرورة  
بعد الزواج للسيطرة على الزوج •

• وهذا الوضع يمكن أن ينتهي أو أن يقطع متى جاء الاولاد ،  
إذا كانت المرأة سوية فأرضعتهم هي نفسها • ولكن الأطباء يتدخلون  
هنا مرة أخرى •

• إن زوجتي التي كانت تريد أن ترضعهم أولادها بنفسها  
والتي أرضعت خمسة أطفال بعد الأول ، قد مرضت بعد ولادة  
الطفل الأول • فلما فحصها الأطباء ، وقد عروها من أجل ذلك دون  
حياة ولم يدعوا موضعاً من جسدها إلا وجسوء ، وكان علي أشكر  
لهم ذلك وأن أقدمهم عليه أجراً ، قد حظروا عليها الرضاع ، فحرمت  
في الأوقات الأولى ، من الوسيلة الوحيدة التي كان يمكن أن تحبها  
الرغبة في الاغراء • وحينما بمرضع أرضعت طفلنا ، أي أننا استغلنا  
فقر امرأة أخرى وحاجتها وجهلها ، فأبعدناها عن طفلها في سبيل  
طفلنا ، وكسونا رأسها من أجل ذلك بمصاصة تزيناها صفائر • ليس  
هذا هو الأمر المهم • وإنما الأمر المهم أن زوجتي ، خلال فترة  
حربها وخلال مدة الحمل والرضاع قد استيقظت في نفسها تلك  
الرغبة النسوية التي كانت غافية فيها قبل ذلك ، أعني الرغبة في  
الاغراء ، استيقظت قوية عنيفة • وشأ عن ذلك أن استيقظت في  
نفسى ، قوية عنيفة أيضاً ، سوراة الفيرة التي ظلت تعذبني طوال

حياتي الزوجية ، كما تعذب سائر الأزواج الذين يعيشون مسع  
زوجاتهم حياة غير أخلاقية مثلي . \*

١٥

- طوال حياتي الزوجية لم تبارحني سوررات الغيرة \* ولكن  
هذه الغيرة كانت في بعض الفترات تزداد ضراما \* وقد بدأت أحدي  
هذه الفترات يوم امتعت زوجتي بأمر الأطباء عن ارضاع طفلها  
الأول \* فقد اشتدت غيرتي عندئذ اشتدادا خاصا أولا لأن امرأتي  
شعرت أيامذاك بذلك القلق الذي تشعر به كل أم حين تقطع عن  
ارضاع طفلها ، فبعد عن الحياة السوية ، وثانياً لأنني اذ رأيت  
زوجتي تنبذ واجبها الأخلاقي نحو ابنها بسهولة ، قدرت على غير  
وعمي ( وكان تقديري في محله ) أنها تستطيع أن تنبذ واجباتها  
الزوجية بمثل تلك السهولة ، خاصة وأن صحتها كانت جيدة  
وأنها أرضعت أولادنا الآخرين بعد ذلك رغم وصايا الأطباء الذين  
أزادوا أن يمنعوها عن ارضاعهم \*  
- واضح أنك لا تحب الأطباء !  
قلت هذا اذ لاحظت أن صوته يخبث كلما أشار الى الأطباء \*

فقال :

- ليست المسألة أنني أحبهم أو لا أحبهم \* وإنما المسألة أنهم  
أفسدوا حياتي كما أفسدوا ويفسدون حياة الوف الناس ومثلت الالوف  
من الناس ، ويستحيل علي أن لا أربط المغلول بالغلة . . . أنا أحبهم  
أنهم يريدون كالمحامين أن يجمعوا مالا \* وأنا مستعد لأن أعطيهم  
نصف ما أملك من مال ، وكل انسان مستعد لأن يعطيهم نصف موارده  
إذا هو أدرك ما يفعلون ، شريطة أن يدعونا وشئتنا \* وأن لا يعكروا

صفو حياتنا العائلية وأن لا يقاربونا ولو من بعيد • أنا لم أقم باستقصاء في الموضوع ، ولكنني أعرف عشرات من الحالات ، أعرف حالات كثيرة جدا ، تدخل فيها الأطباء ، فإذا هم يقتلون اما الطفل قبل أن يولد ، واما الأم أثناء الولادة باجراء عملية جراحية لها • ما من أحد يحصي جرائم القتل هذه ، لأن الناس يقدرون أنها تم لخير الانسانية ، كما قدروا في الزمان القديم أن جرائم القتل التي ارتكبتها محاكم التفتيش انما كانت تم لخير الانسانية • ان الجرائم التي اقترفها هؤلاء الاطباء لا تحصى عددا • ولكن هذه الجرائم كلها لا تعد شيئا اذا قيست بذلك التحلل الاخلاقي الناشئ عن المادية التي يحملونها الى العالم •

« لا أتحدث عن أن الناس لو اتبعوا وصايا الاطباء لكان عليهم أن ينفصلوا بدلا من أن يتصلوا ، مخافة العدوى التي تترصص بهم في كل مكان : امت تعلم أن اتباع وصايا الاطباء قد يوجب على المرء أن يلزم بيته لا يبارحه ، وأن يدع في فمه دائما انبوبا مملوءا بحامض الفوليك ( مع العلم أنه قد اكتشف أخيرا أن هذا نفسه ليس يفيد في شيء ) • لا أتحدث عن ذلك الأمر ، فهو ليس بندي بال • واما السم الأول الذي يفتنه هؤلاء الأطباء هو أنهم يدفعون الناس الى الفحش دفعا ، ولاسيما النساء •

« ان الناس لا يقولون لأنفسهم ولا للآخرين : اذا كانت حياتك مهيئة فحاول أن تحسنها • واما يقولون : اذا كانت حياتك سيئة ، فمرد الى ذلك الى سوء جهازك العصبي ، الخ ، فما عليك الا أن تذهب الى الاطباء ليصنعوا لك دواء ثمنه ٣٥ كوبيك ، فتجرعه فتشفى • فاذا زادت حالتك سوءا فتجرع أدوية أخرى ، وامض الى أطباء آخرين !

« يا له من تدبير رائع !... »

« على أن الأمر ليس هو هذا أيضا • وإنما أريد أن أقول لك  
ان امرأتي كانت ترضع أطفالها بنفسها ، وان حالات الحمل والارضاع  
هي الامور الوحيدة التي كانت تقفني من سورات الغيرة • ولولا هذا  
لوقع كل شيء قبل ذلك • لقد أنقذنا الأطفال • ولدت خمسة أطفال  
خلال ثماني سنين ، وأرضعتهم جميعا الا الأول •  
سألته :

- أين هم أولادك الآن •  
فسألني بلهجة وجلة :  
- أولادي ؟

- معذرة ! قد يؤمك أن تتذكر هذا الأمر •  
- أبدا • لقد ذهب أولادي الى خالتهم وأخيها • لقد انتزعوا  
مني أولادي • تنازلت لهم عن ثروتني ، ولم يردوهم الي • ذلك  
لأنهم يعدونني مجنونا بعض الشيء • لقد كنت مع أولادي منذ  
قليل ، رأيتهم ، ولكن لم يعهد بهم الي • ولو قد عهد بهم الي  
لنشأتهم تنشئة تجعلهم لا يشبهون أبويهم ، في حين أن عليهم الآن  
أن يقوا كما هم • ولكن ما خيلتي ؟ واضح أنني لن أستطيع أن  
أضمهم الي ، وأن الناس لن يصدقوني • لست أدري أنا نفسي هل  
أملك من القوة ما يساعدي على أن أتولى تربيتهم • أظن أنني  
لا أملك من القوة على ما يساعدي على ذلك • أنا انسان محطم ،  
أنا انسان عاجز • ومع ذلك هناك شيء ما أزال أملكه • أعرف  
هذا • نعم نعم هذا صحيح • انني أعرف شيئا سيظل يجهله الناس  
مدة طويلة •

« نعم ، ان أولادي في صحة جيدة ، وهم يكبرون من تلقاء  
أنفسهم ، ويشيئون متوحشين ، كسائر من يحيطون بهم • لقد  
رأيتهم ثلاث مرات ، ولا أستطيع أن أصنع لهم شيئا • أنا ذاهب



الآن إلى الجنوب ، عائد إلى بيتي . أنني أملك هناك منزلا وحديقة .  
 « نعم إن الناس لن يطلعوا بسرعة على ما أعرف . أنهم يستطيعون  
 أن يتعلموا بسرعة مقدار الحديد والمعادن في الشمس والنجوم ، أما  
 أن يعرفوا ما تشتمل عليه حقارتنا ، حقارة الخنازير ، فذلك أمر  
 صعب ، أمر على جانب رهيب من الصعوبة !  
 « أنت تصغي إلى كلامي على الأقل ، واني لأشكر لك هذا  
 الجميل .

١٦

سذكرتني منذ لحظة بأولادي ما أكثر الأكاذيب هنا أيضا ، في موضوع  
 الأطفال ! انهم نعمة من السماء . . . . انهم فرحة . . . كذلك يقول  
 الناس . وكل هذا زور وبهتان . كان ذلك صادقا في الماضي ، أما  
 الآن فلا وجود لشيء من هذا كله . الأولاد عذاب ، ولا شيء  
 غير ذلك . أكثر الأمهات يشعرون بهذا رأسا ، وقد يفصحن عنه على  
 غير عمد . أسأل عددا من الأمهات في بيتنا ، يقطن لك انهن من  
 مخافة أن يرين أولادهن يتعذبون أو يموتون ، يسمين أن لا يتجبن  
 أطفالا ، فاذا ولد الاطفال لم يشأن أن يرضعنهن حتى لا يتعلقن بهم  
 وحتى لا يتلتن . ان اللذة التي يولدها لهن الطفل بقوته ، يديه  
 الصغيرتين ، قدميه الصغيرتين ، بشكله كله ، هي دون الألم الذي  
 شعرن به حين يتصورونه مريضا أو ميتا . انهن حين يوازن بين  
 فوائد الطفل وأضراره يرون أن من الخير أن لا ينجب المرء أطفالا .  
 هن يقطن هذا بصراحة وجرأة ، متوهمات ان هذه العواطف ناشئة  
 عن جهنم للأطفال ، هذا الحب الذي هو عاطفة محمودة يقاخرن  
 بها ، ولا يدركن أنهن بهذا ينكرن الحب ويؤكدون أثرتهن . ان

لذتهن بجمال الطفل أقل من الآلام التي يولدها لهن خوفهن عليه .  
لذلك يجب أن لا يولد هذا الطفل ، الذي سيحيته وعم ذلك . انهن  
لا يضحين بأنفسهم من أجل الكائن الذي يحيته ، بل يضحين به  
نظفا من أجل أنفسهن .

« وواضح أن هذا ليس من الحب في شيء ، بل هو الأثرة  
بعينها . ولكن الناس لا يملكون الحرارة على اتهام هاته الأمهات  
الثريات ، لأنهم يذكرون جميع تلك الآلام التي يطاوبونها بفضل  
أولئك الأطباء أنفسهم متى مرض أبناؤهم . انني إذ أتذكر كيف  
كانت حياة زوجتي وكيف كانت حالها ، في تلك الأوقات الأولى ،  
مع ثلاثة أطفال ، ثم مع أربعة ، حين كان هؤلاء الأطفال يستعرقونها  
استغرافا تاما ، فإن الدعر ليستبد بي . لم يكن لنا حياة خاصة بنا .  
لم تكن حياتنا الا خطرا متصلا ، ومحاولات لابقاء الخطر ، وعودة  
هذا الخطر ، وجهودا جديدة لاجتنابه ، ثم خلاصا . كانت حياتنا  
أشبه بحياة باخرة توشك أن تغرق . وكان يترأى لي في بعض  
الأحيان ان امرأتي كانت تظاهر تظاهرا بالقلق على الأولاد ، وأنها  
لم تفعل ذلك الا لتتصر علي . كان الامر مغريا ، بسيطاً ، وكان  
ذلك يحل جميع المشكلات على ما تحب . كان يترأى لي في بعض  
الأحيان أن كل ما كانت تفعله وتقوله إنما كان تظاهرا . ولكن  
لا ، لقد كانت تتألم هي نفسها بسبب الاطفال ، بسبب صعقتهن ،  
بسبب أمراضهن . كان ذلك كله أما لا يطاق ، لي ولها على السواء .  
كان مستحيل عليها أن لا تتألم . ذلك أن الميل الى الاطفال ، والحاجة  
الحيوانية الى ارضاعهم ، والى العناية بهم ، والى حمايتهم والدفاع  
عنهم ، كل ذلك كان قائما في نفس زوجتي كما هو قائم في نفس  
أكثر النساء ، وإنما يعوزه أن يخلو من الخيال والعقل ، كما يخلو  
من ذلك لدى الحيوانات . ان الدجاجة لا تخاف مما قد يتسبب

لصفارها ، ولا تعرف الأمراض التي يمكن أن تصاب بها صفارها ،  
لا ولا الوسائل التي يتخيل البشر انهم قادرون بها على محاربة  
الأمراض والموت • ليس صفار الدجاجة غذاءا للدجاجة • انها  
تعمل لصفارها ما يحسن بها أن تعمله ، وما يفرحها أن تعمله :  
صفارها فرحة لها • فإذا أصاب صغيرها مرض ، كانت غايتها به  
محدودة : فهي تدفئه وتطعمه • وهي حين تفعل ذلك تعرف أنها  
تفعل كل ما يجب عليها فعله • فإذا نفق صغيرها لم تسأل لماذا  
نفق ، والى أين ذهب ، وانما تفرق قليلا ، ثم تمضي تعيش كما  
كانت تعيش • أما عند نساتنا الشقيات ، وعند امرأتي بوجه خاص ،  
فالأمر يختلف عن ذلك كل الاختلاف •

لست أتحدث عن الأمراض وشفائها وتربية الأولاد وما الى  
ذلك ، وانما أريد أن أقول لك ان امرأتي كانت تسمع من الناس  
وتقرأ في الكتب عن قواعد في التربية متنوعة الى أبعد حدود التنوع  
متغيرة أشد التغير • ماذا أطعم طفلي ؟ أأطعمه هذا الطعام ؟ لا ،  
لا هذا ، بل ذاك • كنا في كل أسبوع جديد نتعلم قواعد جديدة  
في جميع ما يتصل بتربية الطفل : كيف يلبس ، كيف يشرب ،  
كيف يستحم ، كيف يوضع في السرير ، كيف ينتزه ، كيف يخرج  
الى الهواء الطلق ، الخ الخ ، لكن البشر لم يلدوا أولادا الا في  
ذلك اليوم ! • فإذا لم يستحم الطفل كما ينبغي أن يستحم ، وإذا  
لم يتناول من الطعام ما يجب أن يتناوله ، فأصابه مرض ، كان  
واضحا اننا نحن المسئولون عن ذلك ، أننا نحن المذنبون ، لاننا لم  
نفعل ما كان يجب علينا أن نفعله •

« ان المرء يعاني عذابا حتى حين يكون ابنه في صحة جيدة ،  
فإذا مرض الطفل ، كان ذلك هو الجحيم • ويقدر الناس أن  
المرض يشفي ، وأن هناك علما يشفي من الامراض ، وأن هناك

رجالا - هم الاطباء - يعرفون كيف يعالجون المرضى ، لا كلهم  
طبعا بل خيارهم • فاذا مرض الطفل كان يجب علينا أن نعرض على واحد  
من هؤلاء الاطباء النخبة لينقذه من مرضه • فاذا لم نعرض على هذا  
الطبيب ، أو كنا لا نقيم في البلدة التي يقيم هو فيها هلك الطفل •  
لم تكن هذه القناعة قناعة امرأتي وحدها بل قناعة جميع النساء  
اللواتي يحطن بها في بيئتها • هذه ايكاتيرينا سافانوفنا فقادت ولدين  
من أولادها لأن ايفان زارهاروفتش لم يستدع في اللحظة المناسبة •  
وهذا ايفان زارهاروفتش نفسه يقف البنت الكبرى من بنات ماريا  
ايفانوفنا لأنه تولى معالجتها من المرض الذي ألم بها • وهذا بتروف  
وقد اتبع وصاياها فترك الفندق في الوقت المناسب ، فظل أولاده أحياء ،  
ولولا ذلك ماتوا • وهذه فلانة كان ابنها ضعيفا ، فنصح ذلك الطبيب  
بالسفر الى الجنوب ، ففعلت ذلك ، فتحسنت صحة الابن وأقذ •  
ذلك كله ما ترويه النساء بعضها لبعض في بيئتنا • فكيف لا تتألم  
الام وكيف لا تقلق طوال حياتها مادامت حياة أطفالها الذين ترتبط  
بهم ارتباطا حيوانيا رهنا بنصيحة يزجها ايفان زارهاروفتش متى  
استدعى في اللحظة المناسبة ؟ ان ماسيقوله ايفان زارهاروفتش لا يعرفه  
أحد ، ولا يعرفه هو نفسه ، وهو يدرك أنه لا يعرف شيئا ، وأنه  
لا يستطيع أن يساعد في شيء ، ولكنه يدبر أمره بطريقة من الطرق  
حتى يستمر الناس على الاعتقاد بقدرته الجبارة • لو كانت المرأة  
حيوانا تماما لما عانت هذا العذاب كله ، ولو كانت انسانا تماما لآمنت  
بالله وقالت لنفسها ما يقوله المؤمنون لأنفسهم : « الله وهب لي ، وهو  
الذي يسترد اليه وديعته فلتكن مشيئة الله ! »

« هكذا كانت الحياة مع الاطفال لا فرحا بل عذابا ، عذابا  
لامرأتي وعذابا لي • كيف السبيل الى الخلاص من هذا الالم ؟  
كانت امرأتي تتألم في غير انقطاع • كان يتفق لنا أن نهذاً بعد

أزمة من أزمت الغيرة ، أو بعد مشاجرة من المشاجرات ، فترغب  
عندك في أن تمس ، وأن تقرأ ، وأن تفكر ، وشرع في تحقيق  
هذه الرغبة ، ولكن هاهي ذي فاشا تقي ، أو هاهي ذي ماشا ملونة  
الفائض بالهم ، أو هذا هو آندريوشا بشر جلده ... لا لا ، لقد  
انتهى كل شيء ، وليس إلى الحياة من سبيل . إلى أين يركض ؟ عن  
أي طبيب نبحث ؟ كيف نغزل المريض ؟ وما نحن أولاء . بدأ تعقيم  
الملابس ، وقياس الحرارة ، وتجرير الادوية ، واستشارة الأطباء .  
فما تكاد تنتهي من ذلك حتى يقع شيء آخر . إن الحياة العائليسة  
المطرودة المستقرة لا وجود لها . كان هنالك ، كما قلت ، كفضاح  
مستمر ضد الأخطار ، الواقعية والوهمية على السواء . والأمر على  
هذا النحو في أكثر الأسر الآن . ولقد كان في أسرنا خطا بوجه  
خاص ، لأن امرأتي كانت سريعة التصديق ، وكانت تحب الأطفال .  
«وهكذا لم يكن وجود الأطفال يصلح حياتنا ، بل كان يفسدها  
وسمها . أضف إلى ذلك أن الأولاد كانوا فرصة جديدة لقيام  
المشاجرات بيني وبين زوجتي . فمئذ أنجبا أطفالا أصبح هؤلاء  
الأطفال وسيلة من وسائل الخلاف وموضوعا من موضوعات  
الخلاف ، وكان هذا يزداد كلما تقدموا في السن . والحق أنهم  
لم يكونوا موضوعا من موضوعات الخلاف فحسب ، بل كانوا كذلك  
أداة من الأدوات التي كنا نستعملها فيما يقوم بيننا من صراع ، فكاننا  
كما تقتل بواسطة الأولاد . كان لكل منا واحد يؤثره على غيره أداة  
للمشاجرة . كانت ماشا هي التي أقاتل أنا بواسطتها ، وكانت ليزاهي  
التي تقابل امرأتي بواسطتها . أضف إلى ذلك أن أولادنا حين كبروا  
وأضحت معالم طباعهم ، أصبحوا حلفاء يحاول كل ما إن يجتديهم  
إليه وأن يضمهم إلى معسكره . وكانوا يتألمون المرهيبا - بالهم من  
تعبنا ! - ولكننا نحن ، أنا وزوجتي ، في هذه الحرب الدائمة

التي تدور رحاها بيننا ، لم يكن يسمع وقتنا للتفكير في هذا الأسم  
الذي نسيه لوم . كانت الثنت الصغيرة هي حليفتي ، أما امرأتي  
فكانت تؤثر أكبر أطفالنا من البنين حليفا لها . ولا أكتفك أن أنتي  
هذا كان يثير في نفسي الحق والخض في كثير من الأحيان .

## ١٧

— هكذا كنا نعيش . وازدادت العداوة في علاقتنا شيئا بعد  
شيء . وأخيرا لم يعد الخلاف هو الذي يولد العداوة ، بل أصبحت  
هذه العداوة هي التي تولد الخلاف ؛ فكنت أخالف امرأتي مقدما  
في كل رأي تراه مهما يكن هذا الرأي ، وكذلك كانت تفعل هي  
أيضا .

« وأصبح أمرا مقروا ، منذ السنة الرابعة ، أننا لا نستطيع لا  
أن تفاهم ، ولا أن نعيش معا على علاقات طيبة . وأصبحنا لا نحاول  
أن نتفق بالشرح والافهام ، وأصبح كل منا لا يجيد عن مواقفه قد  
شعرة في أبسط الامور ، وخاصة ما اتصل منها بالاولاد ، انني حين  
أفكر في هذا الأمر الآن ، أدرك أن الأداة التي كنت أذافع عنها ،  
لم أكن في حقيقة الأمر أحرص عليها حرص من لا يستطيع أن  
يضحي بها . ولكن كان يكفي أن تكون آراء زوجتي مخالفة  
لها حتى أتثبت بها ، لأن التنازل عنها يعني الرضوخ والاستسلام ،  
وهذا ما لم أكن أرصيه ، وكذلك كنت تفعل هي أيضا . لعلنا  
كانت نعتقد أنها على حق دائما ، وكنت أنا في نظر نفسي ، الحقيقة  
المقدسة بعينها . فكنا حين نجتمع نكاد نصمت دائما ، أو نقصر على  
أحاديث أقسم أن الحيوانات قادرة على أن تديرها بينها : « كسم  
الساعة الآن ؟ أن لنا أن ننام ؟ ماذا نتعدى اليوم ؟ الى أين نذهب ؟

ماذا في الجرائد من أخبار ؟ يجب أن نستدعي الطبيب • ماشا  
تشكو من ألم في حلقها • «

« فما ان تجاوز في أحداثنا هذه الدائرة الضيقة الى أبعد  
حدود حتى يبدأ الحنق • فكانت المشاجرات والكلمات القارصة  
التي تعبر عن البغض تنفجر بصدد أمور لا يمكن أن يكون لها  
أي شأن خطير ، لا بالنسبة الى امرأتي ولا بالنسبة الي أنا : فنجان  
قهوة ، غطاء مائدة ، عربة • • • ومهما يكن من أمر فلقد كنت أحس  
نحو امرأتي ببغض رهيب يغلي في نفسي غليانا • كنت في بعض  
الأحيان أنظر كيف تصب الشاي ، وكيف تهز قدمها ، وكيف تقرب  
الملعقة من فمها ، وكيف تحدث صوتا حين تشرب ، فأكرهها من أجل  
ذلك ، كأنها تقترف عملا من أسوأ الاعمال • ولم أكن لأحظ أيامئذ  
أن فترات البغض كانت تقع مطردة ، وتناسب مع فترات ما كنا نسميه  
حبا : فترة حب - فترة بغض ، فترة حب عنيف - فترة بغض طويل ،  
فترة حب معتدل - فترة بغض قصير • وما كنا ندرك أيامئذ  
أن هذا الحب وهذا البغض هما تلك العاطفة الحيوانية الواحدة  
نفسها من جانبيين • ان الحياة يمكن ان تصبح فظيعة ولو استطعنا  
أن ندرك الموقف • ولكننا كنا لا ندركها ولا نراه • ان الخلاص الذي  
يمكن أن يحققه لنفسه انسان لا يعيش حياة مطردة ، وكذلك العذاب  
الذي يعانيه ، انما سره أنه يستطيع أن يتعامى فما يدرك الكارثة  
التي هو فيها فكذلك كنا نفعل • كانت تحاول هي أن تاهل عن  
نفسها بمشاغل مستعجلة تقتضي جهدا : كأعمال المنزل والاثاث  
والزينة وملابس الأطفال وتعليمهم وصحتهم • وكنت أنا أذهل عن  
نفسي بمشاغلي أيضا : الشراب والخدمة والصيد والقمار • كنا في  
شغل دائم ، وكنا نحس أننا كلما قلت أوقات الفراغ كان في وسع  
كل منا أن يزداد سوء معاملته للآخر • كنت أحاطبها بيني وبين

نفسى قائلاً : « من السهل عليك أن تثيري المشاكل ... لقد عذبتني طوال الليل مع أن اجتماعاً ادارياً ينتظرني في الغداة » وكانت تخاطبني بدورها ، لا بينها وبين نفسها فحسب ، بل جهاراً أيضاً ، قائلة : « أنت ناعم البال لا يهملك شيء » ، أما أنا فلم أتم الليل كله بسبب الولد . « ان جميع النظريات الجديدة التي تتحدث عن التويم المغناطيسي والامراض العقلية والهستريا ليست سخفاً فحسب ، بل هي أيضاً شيء مضر مؤذي . لاشك أن شاركو لو وقف على أمرنا لقال عن امرأتي انها كانت مصابة بالهستريا ، ولقال عني اني انسان شاذ ، ولعله كان يحاول أن يشفينا ، مع أنه ليس بنا مرض يشفينا منه .

« هكذا كنا نعيش اذن في ضباب دائم لاندرك الوضع الذي نحن فيه . ولو لم يقع ما وقع ، ولو عشت على تلك الحال الى سن الشيخوخة ، لقدرت في تلك السن أنني عشت حياة كحياة سائر الناس ، لا هي بالطيبة كثيراً ، ولا هي بالنسبة كثيراً . ولما فهمت تلك الهوة من الشقاء التي كنت أتردى فيها ، ولما فهمت ذلك الجو من الكذب الفظيع الذي كنت اتقلب فيه .

« كنا سجينين قد شدا بوئاق واحد ، يكره كل منهما الآخر ، ويسم كل منهما حياة صاحبه ، ويحاول أن لا يرى ذلك . كنت لا أعرف بعد أن تسعة وتسعين في المائة من الأزواج يعيشون في هذا الجحيم نفسه الذي كنت أعيش فيه ، وأن الأمور لا يمكن أن تجري غير هذا المجرى . كنت في ذلك الحين أجهل هذا عن غسيري وعن نفسي على حد سواء .

« أمر غريب ... ما أعجب الالتقاءات التي يمكن أن تقع في حياة مطردة وغير مطردة ! في اللحظة التي يصبح فيها الأبوان لا يطيقان



الحناء المشرقة يصح التبول الى المدينة ضرورة لابد منها لتربية  
الأطفال .

قال صاحبي هذا وسكت ، وصحك مرتين ضحكه السليخة  
بلك التي شبه ان يكون الآن شهقات مخوفة . وكسا تقرب من  
المحظة . قال :

- كم الساعة الآن ؟

فنظرت فاذا هي الساعة الثانية .

وسألني :

- أنت تعب ؟

- لا ، ولكنك أنت تعب .

- اسمح لي . سوف أتزده قليلا ، وأشرب شيئا من الماء .

قال ذلك ثم اجتاح العربة مرسحا . فلما عاد من الباب الآخر

كنت جالسا وحدي ، مستغرقا في تأمل ما قصه علي ، فلم ألاحظ  
عودته .

## ١٨

استأنف قصته بقول :

- نعم ، اضي أنتحس دائما . لقد فكرت طويلا ، ففسرت

رأيتي في أمور كثيرة ، وأريد أن أقول هذا كله .

و بدانا حياتنا في المدينة . ان الانسان يمكن أن يعيش في

المدينة مائة سنة دون أن يلاحظ أنه قد مات وتفسخ منذ مدة طويلة .

ان المرء في المدينة لا يسمع وقته لأن يحل نفسه ، فهو في شغل

دائم . فالأعمال والواجبات الاجتماعية والصحة والقنون وطبيب

الأولاد وتربيتهم تملأ وقته كله . يجب عليه أن يستقبل فلانا أو

فلانا من الناس ، أو يجب عليه أن يرد له زيارته • يجب أن يرى هذه أو تلك ، ويجب أن يستمع الى هذا أو ذلك • ان المدينة تضم في كل لحظة شخصا أو شخصين أو ثلاثة من مشاهير الرجال لا يمكن أن يفوت المرء على نفسه رؤيتهم لأي حجة من الحجج • وتارة يجب عليه أن يعالج هذا أو ذلك من أولاده • وينبغي له أن يتفق مع معلمين يتولون تدريس أبنائه ، وأن يتفق مع معيدين ، وأن يتفق مع مربية ، والحياة تمضي أثناء ذلك فارغة كل الفراغ •

« وهكذا كنا ، ونحن نجيا هذه الحياة في المدينة ، نشعر من معيشتنا تحت سقف واحد بألم أقل • أضف الى ذلك أننا قد شغلنا في الاوقات الأولى بعمل يقض المرء عن نفسه : هو تنظيم حياتنا في مدينة جديدة ، في منزل جديد ، والانتقال من المدينة الى الريف ومن الريف الى المدينة •

« عشنا على هذه الحال شتاءين ، ووقع أثناء ذلك حادث نأفه لا يتنبه اليه المرء ، حادث يبدو أنه ما كان ينبغي أن يعد شيئا ، ولكنه هو السبب فيما حدث •

« كانت زوجتي مريضة • ومنعها الأطباء من الحمل ، وأشاروا عليها بالوسيلة التي يجب أن تستعملها لمنع الحمل • وقد كرهت هذا أشد الكره ، وكافحت لأحول دونه ، ولكنها عندت وأصررت فما وسعني الا أن أخضع لمشيئتها • وبذلك زال الميرر الوحيد الذي يسوغ هذه المعيشة التي نعيشها معيشة الخنازير - فزادت حياتنا دمامة على دمامة •

« ان الفلاح أو العامل في حاجة الى أن يكون له اطفال ، رغم ما يجد من عناء في اطعامهم ، وبذلك يكون لعلاقاته الزوجية ما يبررها أما نحن فاذا أنجبنا عددا من الأطفال ، أصبح يجب علينا أن لانجب

أطفالا آخرين ، لأنهم هم ونفقات ومزيد من التعب وشسركاء في الارث . ألا ان حياة الخنازير التي يعيشها ليس لها ما يسوغها . انا تتخلص من الأطفال بوسائل مصطنعة أو نعدمهم شقاء وثمرة من ثمرات قلة التبصر ، وهذا أنكى وأفدح .

« انا لا نبحت عن مبرر . انا نبلغ من الإنحطاط الى الدرر الأسفل انا لانرى ضرورة للبحث عن مبرر .

« ان الجزء الأكبر من عالمنا المتحضر يستسلم لهذا العهر دون أن يخامر وجدانه أي ألم .

« لا محل عندنا لوخز الضمير ، لا محل عندنا لألم الشعور ، لأننا ليس لنا شعور ، اللهم الا الشعور برأي الناس وقانون الجزاء ، ان صح هذا التعبير . ورأي الناس وقانون الجزاء لا يخترقان هنا ، لذلك لا نشعر بأي خجل أو عار : ان كل الناس يفعلون هذا ، ومن بينهم ماريا بافلونا وايفان زاهاروفتشس . وفيهم نكثروا الأشياء ، وفيهم نحرم أنفسنا من امكان التنقل بين الصالونات ومشاركة المجتمع الراقى حياته !

وما ينبغي أيضا أن نشعر بأننا مذنبون أمام قانون الجزاء ، ولا أن نخاف منه . ان البغايا والنساء اللواتي يتردد اليهن الجنود يرمين أطفالهن في الغدران أو الآبار : فيجب أن يعاقبن بالسجن طبعا ، أما نحن فنفعل كل شيء في جينه كما ينبغي أن يفعل .

« وهكذا عشنا سنتين . وأخذت أدوية أولئك المجرمين - الأطباء - تفعل فعلها : ازدادت زوجتي جمالا وفتة ، وتفتحت تفتح الأزهار الرائعة في مطالع الصيف . وشعرت هي بذلك وأخذت تعنى بنفسها . واكتسبت جمالا محرصا مشيرا يقلق الرجال . ان لها كل القوة التي تتدفق في امرأة في الثلاثين ، لا تلد ، وتتناول جيد الطعام ، وتعيش في احتياج . أصبح منظرها يشير القلق . أصبحت

إذا مرت أمام الرجال تخطف أبصارهم • أصبحت كحصان يأكل  
جيد الطعام ، أزيلت عنه أجمته فجأة بعد أن ظل خلال مدة طويلة  
من غير حركة • لم يبق لامرأتي أي لجام ، شأنها في ذلك شأن  
تسع وتسعين من نساتنا • وأحسست أنا بهذا ، وخفت منه •

١٩

نهض صاحبي فجأة وجلس قرب النافذة • ثم قال وهو ينظر  
من النافذة :

- معذرة •

وصمت نحو ثلاث دقائق • ثم زفر زفرة أليمة ، وعاد فجلس  
أمامي • لقد تغير وجهه ، وأصبحت عيناه تثيران الشفقة ، وتخدعت  
شفته بابتسامة غريبة •

« انني متعب قليلا ، ولكنني سأستمر في رواية قصتي • ما يزال  
في الوقت متسع • ان الفجر لم ينبلع بعد •

وأردف يتم قصته بعد أن أشعل سيجارة :

« نعم ، منذ أن انقطعت زوجتي عن الحمل سمت ، وزال  
عنها ذلك المرض - أعنى العذاب المتصل بسبب الأطفال - • الحق  
أن ذلك المرض لم يزل زوالا تماما • ولكن امرأتي كانت كمن  
استيقظ بعد سكر ، فاسترد وعيه ، ورأى لأول مرة أن ثمة عالما  
خلقه الله ، عالما مترعا بالأفراح ، عالما كانت لاتعرف كيف تعيش  
فيه ، عالما نسيته ، عالما كانت لاتفهمه البتة « لا تدعي هذا العالم يفلت  
منك ! ان المرء لا يتدارك الوقت الذي فات ! « هذا ما خيل الي أنها  
تقوله لنفسها ، أو أنها تحسه ، ولم يكن يمكن أن تجري الأمور  
غير هذا المجري • لقد نشأت على الاقتناع بأن العالم ليس فيه الا

شيء واحد يستحق الاهتمام ، هو : الحب . فتزوجت ، وعرفت صورة من صور هذا الحب لم تكن هي الصورة التي تتوقعها ، بل كانت كثيرا من خيبة الظن والآلام وعذابا لم يكن في الحسبان هو العذاب الذي يولده لها عدة أطفال . وقد أرهاقها هذا العذاب . ثم ما هي ذي تعلم ، بفضل الأطباء الذين لا يرضون بمد يد المعونة الى أحد ، أن في وسعها أن تستغني عن الأولاد . ففرحت بذلك ، وجربته ، وأحست أنها تعيش مرة أخرى للشيء الوحيد الذي كانت تعرفه ، ألا وهو الحب . غير أن حب زوجها ، هذا الحب الذي تلونه الغيرة وانواع من الخبث والسوء ، أصبح لا يشفي غليلها . فكانت تحلم بحب آخر نقي جديد ، أو هذا ما تصورته أنا على كل حال . فكان يبدو لي أنها تنتظر شيئا ما . رأيت هذا وقلقت منه . وكان يتفق في كثير من الاحيان ، وهي تخاطبني بواسطة أناس تتحدث معهم أي وهي توجه الي كلامها ، أن تعبر عن رأيها ببراعة وحذق ، دون أن يخطر على بالها أبدا أنها كانت منذ ساعة تقول لي كلاما هو نقيض الرأي الذي تبديه الآن ، فكانت تقول بلهجة شبه جادة أن ما تحيط به الأم أطفالها من ألوان الرعاية كذب ، وأن انفاق المرء حياته كلها في سبيل أطفاله أمر لا يجدر ، وأن للصبا حقوقا ، وأن على الانسان أن يستفيد من حياته . وأصبحت زوجتي أقل اهتماما بالأولاد ، وأصبحت لا تحزن لشأنهم كما كانت تحزن في الماضي ، وغدت تعنى بهندامها وبملذاتها وباستكمال أسباب فتنها أكثر مما كانت تعنى بذلك كله من قبل ، مخفية ذلك حتى عن نفسها . وعادت تعزف على البيانو بحماسة شديدة ، وذلك أمر كانت قد هجرته هجرا تاما . ان كل ما حدث قد بدأ من هنا . . .

قال صاحبي هذا وتحول بصره مرة أخرى نحو النافذة ، ولكنه لم يلبث أن عاد يكمل حديثه وهو يبذل جهدا واضحا كل الوضوح :

« نعم ، ظهر ذلك الرجل ... »

ثم تردد وضحك ضحكته الساخرة تلك مرتين •  
لاحظت أنه يشق عليه أن يسمى ذلك الرجل ، وأن يتذكره ،  
وأن يتحدث عنه • ولكنه بذل جهدا جديدا ، فاذا هو يقول بعزم  
واصرار كمن حطم الحاجز الذي كان يمنعه من متابعة الحديث :  
« في نظري ، في رأيي ، كان ذلك الرجل انسانا سيئا ، لا أقول  
هذا بسبب الدور الذي لعبه في حياتي ، بل لأنه كان كذلك حقا •  
ومهما يكن من أمر ، فإن كونه سيئا يؤكد مرة أخرى أن زوجتي  
كانت غير مسئولة • ولو لم يكن هو ، لكان غيره ، وقد وقع ما كان  
يجب أن يقع ! »

قال صاحبي ذلك ، وسكت من جديد • ثم استأنف :  
« نعم ، لقد كان موسيقيا ، عازفا على الكمان لم يكن يحترف  
العزف ، وإنما كان وسطا بين الاحتراف والهواية •  
« كان ابوه رجلا ثريا من أصحاب القصور ، وكان جارنا •  
ولكنه دمر ثروته ، فكان لا بد لأولاده - وهم ثلاثة ، من أن يجلبوا  
لأنفسهم مخرجا • وقد أرسل أصغرهم الى اشبينته بباريز ، فانتمى  
هنالك الى الكونسترفاتور ، وخرج منه عازفا على الكمان ، وأقام  
حفلات موسيقية • كان رجلا ... »

لاحظت أن محدثي أراد أن يصمه بوصفسي ، ولكنه مالبت أن  
لجم لسانه ، وأردف يقول :

« لا أعرف كيف عاش ، ولكنني أعرف أنه ظهر ذلك العام  
في روسيا ، وجاء الي يزورني •

« ان له عينين كاللوز ، وشفقتين كالقرمز مبتسمتين ، وشاربين  
لامعين • وكانت تسريحة شعره على آخر موضة • ان وجهه من  
الوجوه ذات الجمال العامي ، التي يقول فيها النساء : لا بأس بها •

وكان ضعيف البنية ، ولكن على غير تشوه ، وكان بارز الودفين كالنساء . وكان يميل الى رفع الكلفة ، ولكن على غير غلظة ، فكان مستعدا للتوقف عند أسير مقاومة . وكانت له إمهابة في المظهر : انه يتعل جذاء ذا أزرار ، ويعقد على عتقه ربطة زاهية الألوان على عادة الأجانب الذين أقاموا في باريز ردحا من الزمن ، وكان هذا كله يؤثر في النساء ، لجذته ، تأثيرا خاصا . وكانت حركاته ظاهرة المرح ذات زهو . وكان أسلوبه في الحديث أسلوبا خاصا ، فهو أنصاف كلمات ، وعبارات لا تنتهي ، كأنه يفرض أنك تعرف ما يريد أن يقوله ، وتستطيع أن تكمله من عنده .

« هذا الرجل كان بموسيقاه هو السبب في كل ما وقع . لقد أظهروا الأمر كله ، أثناء المحاكمة ، على أنه جريمة غير . والحقيقة أنه لم يكن كذلك تماما . وقرر القضاة أنني رجل خائنه امرأته ، وأنتي قتلت زوجتي دفاعا عن شرفي الذي لوت ( هذا ما قيل ) ، وبسبب ذلك برأتني المحكمة . وقد حاولت أثناء المحاكمة أن أشرح الأمر ، ولكنهم اعتقدوا أنني أحاول أن أرد لزوجتي شرفها .

« ان علاقتها بهذا الموسيقي ، كائنه ما كانت ، ليس لها من شأن لا بالنسبة الي ولا بالنسبة اليها . وليس لها من معنى الا فيما حدثتك عنه الآن ، أعني ما اتصفت به حياتي من أنها أشبه بحياة خنزير . لقد وقع كل ما وقع لأنه كان بيننا تلك الهوة الفظيعة التي وصفتها لك ، ذلك البغض الشديد المتوتر المتبادل الذي كان عند أول فرصة كافيا لاحداث أزمة . لقد أصبحت مشاجراتنا ، آخر الأمر ، شيئا فظيحا . ومما يبعث على أشد الدهشة أن هذه المشاجرات كانت تعقبها رغبة عنيفة حيوانية .

« لو لم يظهر هذا الرجل في حياتنا ، لرجاء شخص آخر . ولو لم تكن تلك الغيرة هي الحجة والذريعة لوجدنا حجة أخرى

وذريعة أخرى • وما أزال أصر على الاعتقاد بأن جميع الأزواج الذين يعيشون كما عشت ، يجب عليهم ، إما أن يستسلموا للفحش ، وإما أن يفضلوا عن زوجاتهم ، أو أن يقتلوا أنفسهم أو زوجاتهم كما فعلت أنا • وإذا أفلت أحد من هذا ، كان ذلك استثناء نادرا • انني قبل أن أفعل ما فعلت هممت عدة مرات أن أتحرر ، كما أن زوجتي حاولت أن تتجرع السم •

## ٢٠

- نعم ، كانت هذه هي حالتنا قبل وقوع الحادث • وكنا نعيش حياة هادئة في ظاهرها ، ولم يكن ثمة ما يوجب قطع هذه الهدنة • وفي ذات يوم بدأت حديثا مع امرأتي في موضوع كلب حصل على نيشان في المعرض • فيما كان من امرأتي الا أن قالت على الفور : لم يكن ذلك نيشانا بل دبلوما • بدأت المشاجرة • وأخذنا ننتقل من موضوع الى آخر ، واخذ كل منا يلوم صاحبه : « هذا معروف ، أنت تتصرف دائما هكذا » ، « لقد قلت ذلك » ، « بل لم أقله ، والا كان معنى هذا أنني كاذب » • ان المرء يحس باقتراب المعركة الرهيبة ، فيتمنى لو يتحرر أو يقتل • وأنا أحس أن المعركة بدأت ، وأخاف من ذلك خوفا من النار ، وأحب أن ألجم لساني ، ولكن كياني كله يكون قد غلى كرها وبغضا • وتكون هي في مثل هذه الحالة ، بل في حالة أسوأ منها أيضا ، فتعكس معنى كل كلمة أقولها ، وتحيلها كلاما كاذبا • ان كل كلمة من كلماتها تقطر سما ، فهي تختار أفحش القول لتجرحني وتؤذيني • واشتد الشجار وعنف • وصرخت ملء صوتي : « اخرسي » ، أو قلت شيئا من هذا القبيل •



فخرجت من الغرفة سريعة ، وهرعت الى حجرة الأطفال ،  
فشبت بذراعها أمنعها من الخروج لأنهم الجملة التي بدأت بها  
رغبة في أن أبرهن لها أنني على حق ، فتظاهرت بأنني آلت ذراعها ،  
فصرخت : « يا أولاد ، يا أولاد ، أبوكم يضربني ! » فصرخت  
بدوري : « لا تكذبي » ، فاستأنفت صياحها : « ليست هذه أول  
مرة » . وهرع الأولاد الى لقائها ، فاخذت تهدتهم ، فقلت : « كفى  
تمشيلاً ! » ، فأجابت : « كل شيء في ظنك تظاهر . ان في وسعك أن  
تقتل اسانا ثم تقول انه يتظاهر بالموت . الآن فهمت . انك لا تريد  
غير هذا ! » فصرخت : « يا ليتك تطفسين ! »

« أذكر انني شعرت من هذا الكلام القطيع ، أنا نفسي ، بدعر .  
كنت لا أتصور أبدا أن في وسعي أن أطلق بهذه الألفاظ البشعة  
القطعة ، وما زلت أستغرب كيف نددت هذه الكلمات عن شفتي . وبعد  
أن صحت ذلك الصياح ، مضيت مسرعا الى غرفة عملي ، فجلست  
ودخنت سيجارة . فسمعت من هناك أصوات خروجها الى المدخل  
واستعدادها لترك البيت ، فسألتها : « الى أين تذهبين » ، فلم تجب .  
فقلت لها بيني وبين نفسي : « شيطان يشيلك » ثم عدت الى غرفة  
عملي ، فاستلقيت ، وأخذت أدخن من جديد . وخطرت ببالي  
ألف طريقة وطريقة للانتقام ، أو للتخلص منها ، أو لتسوية الأمر  
حتى كأنه لم يقع شيء . فكرت في هذا كله ، وكنت أدخن بلا  
انقطاع . راودتني فكرة ترك زوجتي ، والسفر الى أمريكا ، حتى  
لقد أخذت أحلم أنني بذلك أتخلص منها ، وأن هذا سيكون شيئا  
جميلا ، وأنتي سأصاحب هنالك امرأة جميلة مختلفة عنها كل  
الاختلاف . وقلت لنفسي : أو أتحرر منها بالموت أو بالطلاق .  
وأخذت أفكر في السيل الى تحقيق هذا . ثم لاحظت أن عقلي قد  
اضطرب ، وأنتي لا أفكر فيما يجب أن أفكر فيه ، فأمنعت في التدخين

حتى تصبح نظرتي الى الأمور أوضح •  
« غير أن الحياة في بيت من البيوت لا تقف • وهذه هي المربية  
تأتي فسألني : « أين السيدة ، ومتى تعود ؟ » ، وهذا هو الخادم  
يسألني هل يجب تحضير الشاي • وذهبت الى قاعة الطعام • ان  
الأولاد ، وكبارهم خاصة ، وليزا بوجه أخص ( ان ليزا أصبحت  
تفهم الأمور ) ينظرون الي متسائلين مستكرين • وأخذنا نشرب  
الشاي ، وفرغنا من تناول الشاي ، ولما تعد زوجتي • وانقضت السهرة  
كلها على هذه الحال • انها ليست معنا • وتنازعتني عاطفتان مختلفتان :  
أولاهما الحنق منها والكره لها بسبب هذه الآلام التي يولدها غيابها  
لنا ، أنا والأولاد ، وهي آلام ستتهي بانتهاء غيابها على كل حال ،  
والثانية هي الخوف من أن لا تعود ومن أن تحدث لنفسها أذى •  
وشعرت أنني على استعداد لأن أمضي باحثا عنها • ولكن أين أبحث  
عنها ؟ عند أختها ؟ ألا انها لحماقة أن أذهب الى هناك وأن أسأل ،  
سامحها الله ! ، هل تريد أن تؤلما وهل تتألم هي نفسها • انها ،  
في حقيقة الأمر ، لا تنتظر غير هذا • واذا ذهبت ، فيكون الأمر  
في المرة القادمة أدهى • ولكن ألا يمكن أن لا تكون عند أختها ؟  
ألا يجوز أنها تريد أن تتحرر ، أو أنها انتحرت وانتهى الأمر ؟ •••  
ودقت الساعة الحادية عشرة ••• وانتصف الليل ••• ولما تعد • لم  
أمض الى حجرة النوم • ان من الحماسة أن أبقى فيها وحدي ،  
أنتظر ولا أنام • وأردت أن أفعل شيئا • أن أكتب رسالة ، أن  
أقرأ ••• ولكنني لم أستطع • وبقيت وحدي في حجرة عملي ،  
أتألم ، وأحرق • وأنتظر • ودقت الساعة الثالثة ، فالرابعة ••• ولما  
تعد • ونمت عند الفجر • فلما استيقظت كانت لا تزال غائبة •  
« ان الحياة في البيت مستمرة على عاداتها ، ولكن جميع من في  
البيت ينظرون الي نظرة سائلة غائبة لائمة ، وفي ظنهم أنني السبب

في كل ما وقع • أما أنا فما يزال يتنازعي شعوران : ذلك اليأس لها ، وذلك القلق عليها •

« وفي الساعة الحادية عشرة من الصباح وصلت أختها رسولا أو سفيرا • ودار الحديث الذي يدور في مثل هذه الأحوال : « ان حالتها فظيمة ، فما الذي حدث ؟ » • « لا شيء » ، لم يحدث شيء البتة • • وأجبت بأن طبع زوجتي طبع صعب ، وأنتي لم أفعل شيئا قط • فقالت أختها : « ولكن الأمر لا يمكن أن يستمر على هذه الحال • » قلت : « هذا شأنها ، لا شأنني • لن أقوم أنا بالخطوة الأولى • فإذا شاءت الانفصال ، انفصلنا • »

« ومضت أخت زوجتي دون أن تنجح في المهمة التي جاءت من أجلها • لقد أظهرت كثيرا من قوة العزم حين قلت لها أنتي لن أقوم بالخطوة الأولى ، ولكن ما ان مضت فرأيت أطفالي على تلك الحالة من الأسى والخوف حتى تفطر قلبي فأحسست أنني مستعد للعدول عن قراري • انه ليسعدني أن أقوم بالخطوة الأولى ، ولكنني لا أعرف كيف • وأخذت أذهب وأجبي من جديد ، وأخذت أدخن ، وشربت عند الغداء فودكا وخمرا ، فوصلت الى ما أريد ، على غير شعور مني : أصبحت لا أرى ما في وضعي من حماقة وجبن •

« فلما حانت الساعة الثالثة وصلت زوجتي • ولم تقل شيئا حين لقيتني • فتخيلت أنها هدأت ، وأخذت أشرح لها كيف أن كلامهما كان تحديا لي • فما كان منها الا أن ظلت على قساوة وجهها وتعب مظهرها ، فقالت انها لم تجبي • لتسمع شروحا ، بل جاءت لتأخذ الأولاد ، لأنها أصبحت لا تستطيع أن تعيش معي • فأجبتها بأن الذنب لم يكن ذنبي ، وأنها هي التي أخرجتني عن طوري وأفقدتني سيطرتي على نفسي • فنظرت الي نظرة قاسية فيخمة ، ثم قالت : « لا تتكلم ، فانك ستندم على ما يمكن أن تقوله • » فأجبتها بأنني

أحترق التمثيليات الهزلية ! فأخذت تصيح بكلام لم أفهمه ، وهرعت الى غرفتها . وسمعت صوت المفتاح يدور في القفل . لقد أقفلت الباب عليها . فأسرعت وراءها ، وطرقت الباب فلم تجب . فعدت حانقا مغتاظا . وبعد نصف ساعة جاءتني ليزا باكية . ماذا ؟ ما الذي حدث ؟ « أمي لا تجيب » . فذهبتا معا الى غرفتها ، ودفعت الباب بكل ما أوتيت من قوة ، وكان مزلاجه غير مُحكم الاغلاق ، فانفتح الباب على مصراعيه . اقتربت من السرير . ان زوجتي راقدة على السرير بشبابها وحذاءها العاليين . وعلى كرسي قرب السرير ، رأيت زجاجة أفيون خالية . فأخذنا نغشها الى أن استيقظت . وكانت دموع ثم كانت مصالحة . أو قل انها لم تكن مصالحة ، ذلك أنه قد بقي في نفس كل منا ذلك الحقد الذي يشعر به ، حتى لقد أضيف اليه الآن الحنق الذي ولده فيه ما سببته المشاجرة الأخيرة من أذى ينسبه كل منا الى الآخر . ولكن لا بد من انتهاء هذا الأمر على نحو من الانحاء ، واستمرت حياتنا على تلك الحال . فكانت تقوم بيننا مشاجرات كذلك المشاجرة ، بل أفدح منها ، كل أسبوع تارة ، وكل شهر أو كل يوم تارة أخرى . لسم يختلف شيء . وفي ذات مرة طلبت جواز سفري الى الخارج ، فاستمرت المشاجرة يومين ، ثم تفاهمنا نصف تفاهم ، وتصالحنا نصف تصالح ، فلم أسافر .

## ٢١

على هذه الحال كانت علاقتنا حين ظهر ذلك الرجل . وصل الى موسكو - واسمه تروها تشفسكي - وجاء الى بيتي يزورني . كان ذلك في الصباح . واستقبلته . كنا في الماضي نتخاطب بصيغة

الفرد • فحاول أن يعود الى صيغته هذه في حديثنا ذلك الصباح ،  
ولكنني صارحته منذ كلماتي الاولى أنني أحرص على صيغة الجمع  
فيما يدور بيننا من كلام • فلم يلبث أن استجاب لدعوتي • ولقد  
نفرت منه منذ اللحظة الاولى • ولكن الشيء الغريب أن قوة القاهرة  
جذبتني اليه ، شدتني اليه ، منعني من رده ، من ابعاده ، بل حملتني  
على الاقتراب منه • كان يمكنني بسهولة أن أخاطبه بلهجة باردة ،  
وأن أودعه دون أن أقدمه الى زوجتي • ولكنني لم أفعل ذلك ،  
بل حدثته عن عزفه ، كأنما على قصد ، وذكرت له أن اشاعة تسري  
بين الناس مفادها أنه هجر الكمان • فأجاب بأن الاشاعة غير صحيحة ،  
وأنه في هذه الايام يعزف أكثر مما كان يعزف في أي وقت مضى •  
وتذكر أنني كنت أعزف في الماضي • فقلت له انني انقطعت عن  
العزف ، وان زوجتي هي التي تجيد العزف كثيرا • شيء غريب !  
ان علاقاتي به منذ اليوم الاول ، منذ الساعة الاولى ، كانت هي  
العلاقات التي لا يمكن أن تكون الا بعد كل الذي وقع • كان في  
علاقتنا شيء من التوتر ، فكنت أرقب كل لفظ يقوله أحدا ، وكل  
تعبير يستعمله ، وأضفي عليه شأنا وخطرا •

«وقدمت صاحبي الى امرأتي • فما لبنا أن تحدثنا في شؤون  
الموسيقى ، وعرض عليها أن يعزف معها • وكانت امرأتي ، على  
شأنها في هذه الأوقات الاخيرة ، رشيقة جدا ، فانتة جدا ، ذات  
جمال يحدث في النفس القلق • وكان واضحا انها أعجبت منسند  
اللحظة الاولى • وقد سرها ان تستطيع العزف بمصاحبة كمان ، وذلك  
أمر تحبه كثيرا ، حتى أنها أخذت تشي ثناء شديدا على الخدمات  
التي يمكن أن يؤديها في هذا المجال عازف من عازفي الاوبرا على  
الكمان ، وقد عبر وجهها عن فرحها الشديد بهذا العرض الذي قدمه  
لها صاحبي ، ولكنها ما ان نظرت الي حتى فهمت مشاعري ، فتغير  
تعبير وجهها ، وعندئذ قامت بيننا جميعا مسرحية أكاذيب متبادلة :

كنت أنا ابتسم ابتسامة رقيقة ، وأتظاهر بأنني مسرور أشد السرور .  
وكان هو ، إذ ينظر الى امرأتي كما ينظر الى النساء الجميلات  
جميع الرجال الذين لاخلاق لهم ، يتظاهر بأنه لا يهتم الا بالحديث ،  
مع أن الحديث كان في حقيقة الامر لا يعينه في قليل ولا كثير . وكانت  
هي تحاول أن تظهر بمظهر من لا يحفل بالامر ، غير ان ما كان يظهر  
في وجهي المتكلف الابتسام من آيات الغيرة ، وما كان يسدده اليها  
تروهاشفيكي من نظرات شبة فاسقة ، كان يثير في نفسها اضطرابا  
ظاهرا . ولقد رأيت عينيها منذ هذا اللقاء الاول تلتسان بوميض  
خاص حتى لقد تشأ بينهما ، ربما بسبب غيرتي ، نوع من تيسار  
كهربائي ولد تشابها بينهما في النظرة ، والبسمات . كان اذا احمرت  
احمر ، واذا ابتسمت ابتسم . وتحدثنا عن الموسيقى ، وباريز ، وعن  
أمور تافهة . ونهض ليذهب ، مبتسما ، مستندا قبعته على خصره  
المرتعش ، ونظر الي والى امرأتي ، كأنه ينتظر ما ستفعله . انني  
أتذكر تلك الدقيقة خاصة ، لانني كنت استطيع في تلك اللحظة  
أن لا أدعوه الى زيارتنا بعد الان ، ولو فعلت ذلك لما وقع شيء مما  
وقع . ولكنني نظرت اليه ونظرت اليها ، وقلت له بيني وبين نفسي :  
« لا تنظن أنني غيور أو أنني خائف منك » ، ودعوته أن يجيء الينا  
بكماله ليغزف مع زوجتي . فنظرت الي زوجتي دهشة ، واحمر  
وجها ، وكأنها خافت مني ، فأرادت أن ترفض ذلك قائلة انها لاتجد  
الغزف اجادة كافية . وأحقتني رفضها هذا ، فزدت في الالاح . ما  
أزال اتذكر الشعور الغريب الذي أحسست به وأنا أنظر الى سحرها  
وعنقها الابيض الذي يتهدل عليه شعرها الاسود المفروق في وسطه ،  
وحين رأيتها تمشي متبخرة كأنها طائر . كنت لا أستطيع أن أخفي  
عن نفسي أن وجود هذا الرجل يزعجني ويعذبني . فقلت ل نفسي :  
ان أمر انقطاعه عن المجيء الينا مرة أخرى رهن بي وحدي . ولكنني

ان منعته من المجيء ، كنت أعترف بأنني خائف منه • قلت « لا ، لا ،  
انني لست بخائف • ان خوفي منه ينزل قيمتي • » فألححت على  
صاحبي أن يعود ، حتى أنني حين صرنا في الممر الى باب البيت ،  
أصررت عليه ، لعلمي بأن امرأتي تسمع كلامي ، أن يعود في هذا  
المساء نفسه مع كمانه • فوعدني بذلك ومضى •

« فلما هبط المساء جاء متأبطا كمانه • وعزف مع زوجتي • لم  
ينجح العزف في أول الأمر ، لأن دفاتر الموسيقى كانت تعوزنا ، وكانت  
امرأتي لا تستطيع العزف بالدفاتر التي عندنا من غير تحضير • انني  
أحب الموسيقى كثيرا ، فساعدتهما في تهيئة المسند ، وكنت أقلب  
لزوجتي صفحات الدفتر • وعزفنا لا أدري أية أغنيات ، عزفها  
صامتة بلا غناء ، وعزفنا كذلك لحنا من ألحان موتسارت • كان هو  
يعزف عزفا رائعا • انه يملك ، الى أقصى درجة ، ما يسمى  
بالاحساس بالموسيقى • ثم أن له ذوقا مرهفا رقيقا لا يتناسب مع  
خلقه •

« بديهي أنه كان في الموسيقى أقوى من زوجتي ، ولكنه أثنى  
على عزفها • انه يعرف كيف يتصرف • وكان يبدو على زوجتي  
أنها لا تحفل بغير الموسيقى ، فكانت في سلوكها بسيطة طبيعية • أما  
أنا فكانت أظهار بالاهتمام بالموسيقى ، ولكن الغيرة كانت تنهش قلبي  
طوال السهرة •

« ومنذ اللحظة التي التقت فيها عيناها أدركت أن الحيوان  
الذي يخبتي ، فيهما ، رغم جميع مواضع المجتمع الراقى ، قد  
طرح هذا السؤال : « هل يمكن ؟ » ، وكان الجواب : « طبعا  
يمكن ! » • وقد رأيت أن صاحبي كان لا يتوقع أبدا أن يصادف  
في وزجتي - هذه السيدة من سيدات موسكو - امرأة تبلغ هذا  
المبلغ من الفتنة والأغراء ، فسره أنها كذلك • وكانت المشكلة

كلها تلخص في وجود هذا الزوج الذي لا يطاق • لو قد كنت أنا رجلا ظاهرا تقايلا استطعت أن أدرك ذلك ، ولكنني كأكثر الرجال كنت من قبل أن أتزوج ، لا أرى في النساء رأيا غير هذا الرأي ، وهذا ما جعلني أقرأ في نفس صاحبي كما أقرأ في كتاب مفتوح • وقد فاقم ألمي انني كنت أرى رؤية واضحة أن العاطفة الوحيدة التي تحملها لي هي الحق الدائم المتصل تقطعه الشهوة المعهودة من حين الى حين ، وأن هذا الرجل ، بما يمتاز به من أناقة ، وجدة ، وموهبة موسيقية ، وبما قام بينه وبينها من تواصل حميم يخلقه الاشتراك في العزف بتأثير الموسيقى - ولا سيما الكمان - في النفوس الحساسة ، قد أعجب زوجتي ولا شك ، بل أنه يستطيع ، دون أدنى ريب ، أن يتصر عليها ، وأن يرميها بين قدميه ، وأن يصنع بها ما يشاء • كنت لا أستطيع الا أن أرى هذا كله ، فكنت أشعر بألم رهيب • ولكنني رغم هذا ، وربما بسبب هذا ، كنت مدفوعا بقوة مجهولة مخالفة لارادتي الى أن أكون معه مهذبا بل رقيق الحاشية • لا أدري أكان ذلك مني رغبة في أن أظهر لزوجتي أنني لا أخشاه ، أم كان مخادعة لنفسي عن حقيقة الأمر ، ولكن الذي أعرفه هو أنني منذ أول اتصال به لم أستطع أن أكون بسيطاً معه • كان لا بد لي ، حتى أخلق رغبتي في قلبه فورا ، من أن أدله • فسقته اثناء تناول طعام العشاء خير ما عندي من خمور ، وأظهرت الحماسة لعزفه ، وحدثته والابتسام الرقيق على ثقري ، ودعوته أن يأتي يوم الاحد القادم فيتناول معنا طعام الغداء ويعزف مع زوجتي • وقلت له تني سادعو بعض اصدقائي من هواة الموسيقى ليستمعوا الى عزفه • نعم ، هذا ما فعلته •

قال صاحبي يوزدنيشيف هذا الكلام ، وظهرت عليه علام اضطراب شديد ، فغير وضعه ، وضحك ضحكته الساخرة • ثم



أردف يقول وهو يبذل جهدا ظاهرا لتهدئة نفسه :  
- انني لأمتلي ، دهشة حين أتذكر كيف كان وجود هذا  
الرجل يؤثر في نفسي ذلك التأثير . في اليوم الثاني أو الثالث ، عدت  
الى البيت بعد زيارة أحد المعارض ، فما ان صرت في المدخل حتى  
شعرت بأن قلبي ثقيل كأن فيه صخرة ، ولم أفهم السبب في ذلك .  
لقد لمحت في المرآة شيئا ذكرني بتروها تشفسي . ولم أدرك ذلك  
الا حين وصلت الى حجرة عملي ، فعدت أدراجي لأؤكد من الأمر .  
نعم ، لم يخطيء ظني . . . . انه معطفه . وهو ، كما تعلم ، معطف  
من آخر طراز ، من أحدث موضة ( كنت ألاحظ بانتباه شديد كل  
ما يتصل به ) . وسألت فعرفت أنه في البيت حقا . فمضيت الى القاعة  
الكبرى مارا بالحجرة المخصصة لدراسة الأطفال ، بدلا من المرور  
بالصالون . كانت ابنتي ليزا تقرأ كتابا ، وكانت المربية واقفة مع بنتنا  
الصغرى قرب المنضدة تدير غطاء ما . وكان باب القاعة مغلقا . سمعت  
نغمات مطردة ، وسمعت صوتهما يتحدثان فأصغيت . ولكنني لم  
أميز شيئا من كلامهما . قلت لنفسي : لا شك أن التصد من اصدار  
هذه النغمات هو أن تعطي أقوالهما . . . وربما قبلاتهما ! . . . ياللزوجة  
التي عصفت عندئذ في نفسي ! حين أتذكر الوحش الذي كان يختبئ  
في ، يستبد بي زعر . لقد قبض قلبي فجأة ، وتوقف ، ثم أخذ  
يخفق خفقانا شديدا . ان العاطفة الأساسية التي شعرت بها هي  
الاشفاق على نفسي ، شأني في ذلك شأن كل من يغضب . قلت بيني  
وبين نفسي : « أمام الأطفال ، أمام المربية ؟ » . ولا شك أن وجهي  
كان على حال فظيعة من الاضطراب ، فان ليزا قد نظرت الي عندئذ  
نظرة غريبة . تساءلت : « ماذا أصنع ؟ أدخل ؟ اني لا أستطيع  
الدخول . . . لا يعلم الا الله ماذا يمكن أن أفعل لو دخلت . ولكنني  
لا أستطيع أن أمضي أيضا . » وكانت المربية تنظر الي نظرة من فهم

الوضع • « يستحيل أن لا أدخل » ، قلت ذلك لنفسي ثم فتحت الباب بسرعة • كان هو جالساً الى البيانو يصدر تلك النغمات المطردة بأصابعه البيضاء المتلوية • وكانت هي واقفة أمام دفاتر الموسيقى المفتوحة • وقد رأيتني أو سمعتني قبل أن يراني هو ، فنظرت الي • أخفت ذعرها أم أنها لم تشعر بذعر ؟ انها لم ترتعش ، ولكنها احمرت ، ولم يظهر احمرارها هذا الا بعد أن رأيتني • قالت :-  
- يسرني أنك جئت • اننا لم نقر ربيعنا الذي سنزفه يوم الأحد •

قالت ذلك بلهجة ليست لهجتها حين نكون وحدنا • فأتاني ذلك ، وأتاني أنها تحدثت عن نفسها وعنه بقولها : « اننا ... » • وحيث الرجل صامتا ، فصافحني ، وقال لي ، وهو يتسم ابتسامة خلتها سخرًا ، انه جاء بدفاتر الموسيقى تهبوا لحفلة يوم الأحد ، ولكنهما لم يتفقا بعد على الألحان التي سيعزفانها : هل يعزفان شيئاً صعباً كلاسيكياً أم يعزفان سوناته بهوفن على الكمان ، أم يعزفان معزوفات قصيرة ؟ قال ذلك كله على صورة طبيعية بسيطة لا يمكن أن أقول فيها شيئاً ، ولكنني كنت مقتنعا بأن هذا كله كذب ، وبأنهما متفقان على خداعي •

« ان ألم شعور يحسه غيور ( لاحظ أننا في حياتنا الاجتماعية غيورون جميعاً ) هو أن بعض ظروف حياة المجتمع الراقي تسمح قيام صلة صميمية خطيرة بين رجل وامرأة • ان المرء يصبح أضحوكة في فم الناس اذا هو حاول أن يمنع تلك القرابات التي تنشأ في حفلات الرقص ، وتلك العلاقات التي تقوم بين الأطباء ومرضاهم ، وذلك التواصل الحميم الذي يقوم نتيجة للاهتمام بالفنون ، بالتصوير وبالموسيقى خاصة • ان الذين يهتمون معاً بالموسيقى أرفع الفنون ، يرون أنه لا بد أن يقوم بينهم شيء من هذا التواصل الحميم الذي

ليس فيه ما يسيء ، وأنه ما من أحد غير الزوج الأحق الغيور  
يمكن أن يرى في ذلك أمرا غير مستحب . ومع ذلك يعرف الناس  
جميعا أن أكثر الخيانات الزوجية التي تقترف في بيتنا إنما تقترف  
بفضل هذه التسليلات ، وبفضل الموسيقى خاصة .

« كان واضحا أنهما انزعجا من الحالة التي كنت فيها . فإني  
ظللت لحظة طويلة لا أعرف ماذا أقول . كنت كزجاجة انقلبت فلم  
يخرج منها الماء لأنها ممتلئة كل الامتلاء . كنت أود لو أستمه ، لو  
أطرده ، ولكنني شعرت أن علي أن أكون ، من جديد مهذبا رقيق  
العاشية معه . وكذلك فعلت . فتظاهرت بأنني أؤيد كل ما يرى من  
أمر ، دفعتني الى ذلك تلك العاطفة نفسها التي تجبرني على أن  
أكون ألطف ما أكون في معاملته حين يكون ألمي أشد ما يكون من  
وجوده . قلت انني أدع أن يختار ما يشاء له ذوقه ، ونصحت  
لزوجتي بأن تفعل مثل ما فعلت . ومكث بعد ذلك الى أن تسدد  
الموقف المزعج الذي نشأ عن دخولي واضطراب وجهي . ثم مضى  
متظاهرا بأن كل شيء قد تقرر فيما يتعلق بالمعزوفات التي سيعزفانها  
في غد . وكنت مع ذلك على يقين تام من أنهما قد اهتما بشيء آخر  
غير هذا ، وأن اختيار المعزوفة التي سيعزفانها أمر ليس له عندهما  
قيمة .

« وشيعته الى الباب في كثير من الأدب ( انه يستحيل أن تفعل  
غير هذا مع رجل جاء يحمل الى بيتك الاضطراب ، ويهدم سعادة  
أسرتك ) . وشددت على يده الناعمة البيضاء أصابعه في مودة .

٢٢

« لم أكلم زوجتي طوال ذلك اليوم ، كنت لا أستطيع أن

أكملها • وكان وجودها حولي يثير في نفسي كرها يبلغ من العنف أنه أخافني • وبينما كنا نتناول طعام الغداء ، سألتني أمام الأولاد عن اليوم الذي أعتزم فيه السفر ، ذلك أنني كنت أنوي الذهاب في الأسبوع التالي الى مؤتمر يعقد في مركز الاقليم • فذكرت لها اليوم الذي أعتزم فيه السفر • فسألتني هل أنا في حاجة الى شيء من أجل الرحلة • فلم أجبها • ولزمت الصمت حتى نهاية الغداء ، ثم انسحبت الى حجرة عملي دون أن أتيس بكلمة • وكانت زوجتي في هذه الأوقات الأخيرة لا توافيني في حجرتي أبدا ، ولا سيما في ساعة كهذه الساعة • فاستلقيت وأخذت أجتر مرارة نفسي • وفجأة سمعت وقع خطواتها المعروفة قادمة نحوي • فراودتني هذه الفكرة الفظيعة الشيطانية ، وهي توافيني في هذه الساعة على غير عاداتها لتحاوّل ، كما فعلت امرأة « أوري » أن تخفي الخطيئة التي قارفتها • قلت لنفسي وأنا أصغي الى اقتراب خطواتها : « هل يمكن أن تأتي الي ؟ لو جاءت الآن لكنت ظنوني في محلها • » • واستبدت نفسي كره لا أستطيع وصفه • وكانت خطواتها تزداد اقترابا • أراها تمر أمام بابي لتمضي الى القاعة الكبرى ؟ لا • ها هو ذا باب غرفتي يصر ، وها هي ذي تظهر رشيفة جميلة ، عند العتبة • وقرأت في وجهها وفي عينيها معاني الخشية والعبودية التي تود لو تخفيها ، والتي أعرف دلالتها حق المعرفة • وكدت أختق من فرط انجس أنفاسي ، فما ان رأيتها حتى تناولت علبة سجائري وأشعلت سيجارة • قالت وهي تحاول أن تجلس الى جانبي على الديوان وتستند الي :

- ليس من اللباقة في شيء أن أتني اليك فتأخذ تدخن •
- فاتعدت عنها حتى لا ألمسها • فقالت :
- يخيل الي أنك مستاء من أنني سأعزف يوم الاحد •

- أبدا •

- أنتظن أن استيائك يخفى عني ؟

- أهنتك • ولست أرى إلا شيئا واحدا هو أنك تسليكين

سلوك امرأة مغناج تحب أن تغري الرجال ••• والحق أنك امرأة يروق لها كل صغار أما أنا فذلك عندي شيء فطبع !

- ها ••• إذا كنت ترشقني باهانات من تلك التي يتلفظ

بها سائقو العربات ، فانتني لن أبقى هنا •

- اذهبي • ولكن اعلمي أن شرف العائلة ان كان لا يعينك ،

فهو يعينني • وهذا الشرف هو الشيء العزيز في نفسي ، لأنت •••

أما أنت فاذهبي الى جهنم •••

- ماذا تقول ؟ ماذا تقول ؟

- اذهبي ••• اذهبي •

لا أدري أظاهرت بأنها لم تفهم ما قلت أم أنها لم تفهمه

حقا ، ولكن الشيء الذي أعرفه أنها انزعجت ، وغضبت ، ووقفت

في وسط الغرفة بدلا من أن تذهب • ثم قالت :

- الحق أنك أصبحت لا تطاق • ان طبعك لا يتحملة ملاك

من الملائكة •

وعلى عاداتها حين تريد أن تؤذيني أكبر ايداء ممكن ، ذكرتني

بسلوكي مع أختي ( لقد سبق أن خرجت عن طوري ، فخاطبت

أختي بكلام فظ غليظ ) • ان زوجتي تعرف أن هذه الذكرى

تؤلمني ، فبادرت الى تذكيري بها ، وقالت :

- بعد الذي صنعه بأختك لا أستغرب منك شيئا •

قلت لنفسني : « أنتهيني وتهدر كرامتي وتلطح شرقي بالعار

ثم تريد بعد ذلك أن تلتصق بي كل الأخطاء ؟ » وشعرت فجأة

بكرة لا عهد لي بمثله من قبل •

« لأول مرة اشتبهت أن أعبر عن كرهى بأفعال • فقفزت من مكانى ، وتقدمت نحوها • ابى أتذكر الآن تذكرًا كاملاً أنني كنت واعياً كرهى فى تلك اللحظة ، فساءلت : هل يجعل بى أن أستسلم لهذا الأفعال ؟ ثم أجبت نفسى : نعم يجعل بى ذلك ، وستخاف • وما لبثت أن أورت غضبى بدلاً من أن أكظمه ، وسرنى أنى رأيت يزيداد عنفا •

- اذهبى والا كان يمكن أن أقتلك !

هذا ما صحت به وأنا أقرب منها وأمسك ذراعها ، وأفاقم برة الكره فى صوتى عن عمد • ولا شك أن منظرى عندئذ كان رهيباً • فان زوجتى قد بلغت من الخوف أنها لم تقو حتى على الخروج ، فكانت لا تريد على أن تردد قولها : « فاسيا ، ماذا دهاك ؟ • • • • • ماذا هنالك ؟ • • • • • » •

فصرخت بصوت أقوى :

- أخرجى ! أنت وحدك قد أوتيت القدرة على اغضابى

هكذا • لست أنا المسئول •

سكرت من نشوة استسلامى لهذا الجنون ، وشعرت بحاجة الى أن أفعل شيئاً خارقاً ، لأظهر مدى ما بلغت من حنق • استبدت بى رغبة مجنونة فى أن أضربها ، فى أن أقتلها ولكنى كنت أعرف أن هذا أمر تمنعه القوانين • ومع ذلك فانى من أجل أن أروى ظمأى الى الغضب ، تناولت من على المنضدة السكين الثقيلة التى أفتح بها الكتب ، فرميتها على الأرض قرب زوجتى وأنا أصرخ « اذهبى ! » • لقد أحكمت التسديد بحيث لا تبلغها السكين • فتقدمت لتخرج من الغرفة • وظللت طوال الوقت الذى كانت تستطيع خلاله أن ترانى أزرأ قليلاً : « اذهبى اذهبى ! » حتى لقد تناولت أثناء ذلك من على منضدتى شمعدانا ومجبرة فرميتها على

الارض • فلما خرجت توقفت عن ذلك فوراً •  
« وبعد ساعة جاءت المربية تقول ان سيدتها في نوبة عصبية •  
فمضيت اليها لأراها : كادت تبكي وتضحك ولا تقدر على الكلام  
وترتس من قمة رأسها الى أخمص قدميها • انها لا تتظاهر بهذا  
كله تظاهراً ، فلقد كانت مريضة حقاً •

« وهدأت عند الصباح ، فتصالحنا بتأثير هذه العاطفة التي  
كنا نسميها حياً • واعترفت لها بأنني أغار من تروها تشفسي ، فلم  
تضطرب اي اضطراب ، بل ضحكت ضحكة طبيعية ، حتى لقد  
أظهرت أنها تستغرب أن تقبل امرأة أن يغريها رجل كهذا الرجل •  
وقالت : هل في وسع امرأة شريفة أن تشعر نحو هذا الرجل بغير  
الامتنان على ما تهيئه لها موسيقاه من متعة ؟ وأضافت تقول : وأنا  
مستعدة ، اذا شئت ، لأن لا أراه بعد اليوم أبداً ، وأن نلغي حفلة  
يوم الاحد ، رغم أن الدعوات قد وجهت جميعها • وما عليك من  
أجل ذلك الا أن تبلغ المدعويين أنني مريضة • غير أن في هذا الامر  
شيئاً مزعجاً ، وهو أن بعض الناس ، وخاصة هو ، يمكن أن يدور  
في خلدكم أنني أعده رجلاً خطراً • وأنا امرأة أقوى اعتراضاً  
بكبريائي من أن ينصرف ذهن أحد الى شيء من هذا •

« كانت لا تكذب ، وكانت تؤمن بما تقول : كانت تأمل أن  
توقظ في نفسها احتقار هذا الرجل بهذه الكلمات ، وأن تحمي  
نفسها من سلطانه عليها • ولكنها لم تظفر بذلك • كان كل شيء  
ضدها ، وخاصة هذه الموسيقى اللعينة •

وقف حديثنا عند هذا الحد • ووصل المدعوون يوم الاحد ،  
وعزفاً من جديد معا •

« من ناقل القول أن أذكر أنني كنت شديد حب الظهور • وبدون هذه الآفة في طبعي ، لا يكون ثمة مبرر لما وقع • لقد عثت في ذلك الاحد بتنظيم العشاء واعداد السهرة الموسيقية ، فعلت ذلك مسرورا ، حتى لقد توليت بنفسى شراء أشياء كثيرة ، وأرسلت الدعوات •

« فلما حانت الساعة السادسة وصل المدعوون • وقد جاء تروها تشفسكي مرتديا القراك ، وكانت الأزوار الماسية تزين أكمامه وتدل على كثير من رداءة الذوق • كان خفيف الحركة يفيض انطلاقا وسهولة ، وكان يجيب على أسئلتنا اجابات سريعة ، وقد بدت على وجهه علائم التأيد والتحييد والفهم • كان وجهه يعبر عن أن كل ما تقوله له هو بعينه ما كان ينتظر أن يسمعه •

لقد سرني جدا أن ألاحظ في تلك اللحظة كل ما كان في هذا الرجل من لبس ، لأن ذلك يبرهن لي على أنه أحقر من أن نحط زوجتي الى مستواه • ولم يبق ثمة مجال للغيرة ، أولا لأنني كنت متعبا وكنت في حاجة الى راحة ، وثانيا لأنني كنت أريد أن أثق بزوجتي ، وقد وثقت بها • ومع ذلك ، رغم زوال كل غيرة ، لم أستطع أن أسلك سلوكا طبيعيا لا معه ولا معها ، وظللت طوال فترة العشاء وطوال الجزء الاول من السهرة ، أي الى أن أخذنا يعزفان ، ظللت أراقب جميع حركاتهما ، بل وجميع نظراتهما • وكانت حفلة العشاء ، كسائر حفلات العشاء ، مملة ، مليئة بالنفاق • وما ان انتهينا من تناول الطعام حتى بدأ البرنامج الموسيقي • انني أتذكر الان تذكرا واضحا جميع تفاصيل تلك السهرة • ها هو ذا يأتي بكمانه ، يفتح صندوقها ، ويرفع مفرشها الذي طرزته له



سيدة من السيدات ، ويتناولها يديه ، ويأخذ يدوزنها ، وما هي  
ذي امرأتي تجلس الى البيانو وهي تظاهر بعدم الاهتمام ، وتخفي  
خجلها ، وتشكك خاصة في معرفتها بالعزف . وسمعا زفرقات  
الكمان وترتيب الأجزاء أول ما سمعا .

وما زلت أتذكر كيف نظر كل منهما الى الآخر حين رأيا  
المدعويين يجلسون في أماكنهم ، وكيف تبادلوا بضع كلمات . وبدأ  
العزف . أصدر تروها تشفسكي النغمات الأولى . ولاح وجهه  
جادا ، قاسيا ، محيا ، وأصغى الى الأصوات التي تخرج من آله ،  
فأجرى أصابعه على الأوتار خفيفة في حذر . وأجاب البيانو . لقد  
بدأ العزف .

روى بوزدنتشيف ذلك كله ، ثم توقف عن الكلام ، وأطلق  
ضحكته الساخرة . وأراد أن يستأنف حديثه ، ولكنه نشق مخاطبه  
وتوقف مرة أخرى . ثم أردف يتم قصته . قال :

« لقد عزفا لحن كرويتزر ، لبتهوفن . هل تعرف مقطعه  
الأول ؟ أوه أوه أوه أوه . . . انها لشيء فطيع ، هذه السوناته  
( قال ذلك صائحا ) . . . وخاصة ذلك الجزء منها . ان الموسيقى  
لشيء فطيع بوجه عام . ما هذا ؟ انني لا أفهم . ما هي الموسيقى ؟  
ما الذي تصنعه بالانسان ؟ لماذا تؤثر فيه هذا التأثير ؟ يقول الناس  
ان الموسيقى تسمو بالنفس . . . ألا ان هذا الكلام لكذب أن لها  
في النفس تأثيرا رهيبا . . . انها لا تسمو بنفسي أنا . . . والحق  
لا تسمو بالنفس ولا تهبط بها ، وانما هي تهيجها لا أكثر من ذلك  
ولا أقل . كيف أعبر لك عن فكري ؟ ان الموسيقى تجبرني على  
أن أنسى نفسي ، على أن أنسى حقيقة الوضع الذي أنا فيه ، وتنقلني  
الى عالم آخر . يترأى لي ، بتأثير الموسيقى ، أنني أحس ما لا أحسه  
في الواقع ، وأفهم ما لا أفهمه ، وأقدر على ما لا أقدر عليه . أغلب ظني

أن الموسيقى تؤثر مثلما يؤثر تآؤب أو ضحك : يكون المرء في غير حاجة الى النوم ، فاذا تئمت أحد ألامه تئاب ، ولا يكون ثمة داع الى الضحك فاذا سمعت الناس من حولك يضحكون أخذت تضحك معهم . ان الموسيقى تقطني الى الحالة النفسية التي عاناها المؤلف ، وتتحد روحي بروحه ، فاذا نحن نطوف معا من حالة الى حالة . لماذا ؟ لا أدري .

« ان بتهوفن الذي ألف سوناتة كروتيير يعرف لماذا كان في تلك الحالة النفسية ، وقد أدت به تلك الحالة النفسية الى القيام ببعض الأعمال ، وكان لها عنده معنى ، أما أنا فلا يمكن أن يكون لها عندي دلالة . لذلك تهيجني الموسيقى دون أن تولد في نفسي ارتياحا بعينه . حين يعزف لحن عسكري يمشي الجنود مصطفىين ، وتبلغ الموسيقى غايتها ، وحين يعزف لحن راقص ، يرقص الناس وبحقق الموسيقى هدفها ، وحين تغنى صلاة ، يصلي المؤمنون وتقوم الموسيقى بوظيفتها . أما أنا فلا شيء غير الاحتياج ، ولا يعرف المرء فيم يستعمل هذا الاحتياج ! لذلك كانت الموسيقى فطبعة كل الفظاعة ، وكانت تفعل في النفس فعلا رهيبا في كثير من الاحيان . ان الموسيقى ، في الصين ، من الأمور التي تشرف عليها الدولة . . . وكذلك يجب أن تكون في كل مكان . كيف نسمح لكل من يشاء ، أن ينوم تنويما مغناطيسيا شخصا أو عدة أشخاص ليصنع به أو ليصنع بهم بعدئذ كل ما يشتهي ؟ وما قولك اذا كان المنوم رجلا تافها حقيرا قدم اليك عرضا ؟

« يا لها من أيدتلك الايدي التي تمسك بهذه الوسيلة المخيفة ! أنظر ، على سبيل المثال : هذا المقطع الاول من سوناتة كروتيير ، هل يمكن عزفه في صالون بين سيدات عاريات النحور يسمعن العزف فيصفقن له ثم يمضين يأكلن المرطبات وهن يشرثرن فيما هب ودب

ان لحناً كهذا اللحن لا ينبغي أن يعزف الا في بعض الظروف المهمة  
الفخمة الهامة ، أو حين يجب القيام بأعمال تناسب تلك الموسيقى •  
يجب أن تسمع هذه الموسيقى ثم تنهض للقيام بالأعمال التي أوحى  
بها اليك • أما اثاره النشاط اثاره لا تناسب مع المكان الذي أنت فيه  
ومع الزمان الذي أنت فيه ، أما اهاجة عواطف لا يمكن أن تجد  
سبيلها الى الظهور في أفعال ، فذلك يؤدي ايداء شديدا • مهما يكن  
من أمر فقد كان لتلك السوناتة في نفسي أنا تأثير مخيف : فلقد  
خيل الي أنني اكتشف عالما من العواطف والامكانيات الجديدة كنت  
أجهلها الى ذلك الحين • لقد سمعت صوتا يهتف بي من أعماقي  
بقوله : نعم ، هكذا يجب أن تعيش ، لا كما كنت تظن من قبل ،  
أما ما هو ذلك الشيء الجديد ، فأنني لم أدركه في أول الأمر ،  
ولكن مجرد احساسني به قد بث في قلبي فرحا كبيرا • وأصبحت  
أرى الحاضرين ، ومن بينهم هو وزوجتي ، رؤية جديدة •

« فلما فرغا من عزف ذلك المقطع ، عزفا مقطعا آخر جميلا ،  
ولكنه لا يشتمل على شيء خاص ، ولا هو جديد كثيرا حتى لقد  
كانت تبدلاته مبدولة ، ثم عزفا العذبة التي وجدتها ضعيفة جدا  
والحق يقال • وعزفا بعد ذلك ، استجابة لطلب المدعوين ، مرتبة  
لارنست ، وقطعا أخرى صغيرة • وكان ذلك كله جميلا ، غير  
أنه لم يحدث في نفسي عشر معشار التأثير الذي أحدثه فيها مطلع  
السوناتة • لقد كان ذلك التأثير يسيطر في روحي على كل شيء •

« وظللت السهرة كلها أحس بنفسني خفيفا مرحا • انني لم أر  
زوجتي في حياتي كما رأيته ذلك المساء • كانت عيناها أثناء العزف  
متقدتين ، وكان في وجهها قسوة ما لبثت أن استحللت حين توقف  
العزف الى حياء فأن ، وابتسامة عذبة خجلى سعيدة • رأيت ذلك  
كله ، ولكنني لم أحمله من المعنى غير احساسها بتلك المشاعر الجديدة

التي شعرت بها أنا ازاء هذه الموسيقى • وانتهت السهرة بلا أحداث  
مزعجة ومضى ضيوفنا الى بيوتهم •  
« وكان تروها تشفسكي يعلم أنني مسافر بعد يومين للاشتراك  
في المؤتمر ، فقال وهو يستأذنا بالانصراف انه يأمل أن يسعد  
باحياء سهرة موسيقية أخرى في بيتنا متى عاد الى موسكو في رحلة  
أخرى • واستتجت من كلماته هذه أنه لا يرى أن من اللائق أن  
يجيء الى بيتي أثناء غيابي فسرتني ذلك منه •  
« واستتجت من كلماته أيضا أنني لن أعود من رحلتي الا  
بعد سفره ، وأني لن ألقاه اذن •  
« فرأيتني ، لأول مرة ، أصفحه بسرور ظاهر لا أخفيه ،  
وأشكر له زيارته هذه التي سعدنا بها • وبدا لي وداعهما بسيطا  
طبيعا الى أبعد الحدود • وكان كل شيء يجري اذن على خير  
حال • وسررتنا بهذه السهرة سرورا عظيما • »

## ٢٤

— وودعت زوجتي بعد يومين ، وسافرت هاديء البال سعيدا •  
وهناك ، في المؤتمر ، يعمل المرء كثيرا ، ويعيش حياة خاصة جدا  
في عالم صغير مختلف عن عالمه • فكنت خلال يومين أعمل في المكتب  
عشر ساعات في النهار • وفي اليوم الثاني ، جيء لي برسالة من  
زوجتي •  
« انها تحدثني عن أطفالنا ، وعن العم ، وعن المريية ، وعن  
أشياء اشترتها ، ثم تقول لي ان تروها تشفسكي قد جاء اليها يحمل  
معزوفات جديدة ، واقترح عليها أن يعزفها مرة أخرى ، ولكنها  
رفضت ، قالت ذلك كأنه أمر طبيعي جدا لا غرابة فيه •

« لم أتذكر أنه كان قد وعدنا بأن يجيئها بموسيقى جديدة •  
وتراعى لي أنه قد ودعها وداعا أخيرا • فدهشت مما ذكرته دهشة  
مزعجة • غير أن أعمالى كانت من الكثرة بحيث لم يتسع وقتى  
للتفكير في هذا الأمر كله ، ولم أعد قراءة الرسالة الى حين رجعت  
الى حجرتي في المساء •

« فوجدت أن لهجة الرسالة غير طبيعية ، عدا أن تروها تشفسكي  
قد زار زوجتي • فأحسست أن وحشا مقترسا قد همهم في نفسي من  
شدة الغيرة ، وأراد أن يخرج ، ولكنني خفت منه ، فما لبثت أن  
كبحت جماحه • قلت لنفسي : « ما أبشع هذه الغيرة من عاطفة ؟  
هل ثمة شيء أقرب الى البساطة والانطلاق الطبيعي من هذا الذي  
تكبه زوجتي ؟

« واستلقيت على سريري ، وأخذت أفكر في الاعمال التي  
تتظرنى في الغداة • وكان من عادتي أن يصعب علي النوم حين  
أنتقل من بيتي ، ولكنني في هذه المرة ما لبثت أن غططت في نوم  
عميق • واني لفي ذلك النوم العميق ، اذا بي استيقظ فجأة ،  
كأن تيارا كهربائيا قد مسني ، كما يحدث ذلك أحيانا ،  
فانتفضت من على سريري مفكرا في زوجتي ، وفي حبي الشهواني  
ليها ، وفي تروها تشفسكي ، متخيلا أن كل شيء قد تم بينهما  
وانتهى الامر • يا لهول الحنق الذي حطم قلبي في تلك اللحظة !  
وحاولت أن أهدي نفسي ، وأن أردّها الى العقل والصواب ، فقلت :  
هذا هراء ، ولا داعي الى القلق ، فما حدث شيء ولن يحدث شيء ،  
ولا يحق لي أن أحقر نفسي وأن أحقر زوجتي بهذه الظنون !  
ما هو الا عازف على الكمان عرف بين الناس بسوء السمعة ، ولا  
يعقل أن تقدم سيدة محترمة ، لا يعقل أن تقدم ربة أسرة محترمة  
على ... هذا سخف • ولكنني ما لبثت أن هتف من جهة أخرى

أقول : ولكن كيف يمكن أن يكون الأمر غير هذا ... ان الشيء البسيط الطبيعي الذي من أجله تزوجت ، ومن أجله عشت مع امرأتي ، هذا الشيء الذي كان ضرورة لي كما هو ضرورة لسائر الرجال ، هو بعينه ما يقود خطوات هذا الموسيقي . انه عازب ، قوي البنية ، جيد الصحة ( انني أتذكر كيف كان أثناء العشاء يقضم غضروف الضلع قضمًا ، وكيف كان يلتهم قدح الخمر التهاما شرها ) ، يدين ، يأكل جيد الطعام ، وليس هو بالرجل الذي لا مباديء له فحسب ، بل هو أيضا انسان جعل قانون حياته أن ينتهز جميع القرص وأن يتمتع بجميع ما يتاح له التمتع به من ملذات . وقد قامت بينه وبين زوجتي تلك الصلة التي خلقتها الموسيقى ، وهي من أرفه العواطف اللذيذة ، فما الذي يمكن أن يمنعه ؟ لا شيء يمكن أن يمنعه ، بل كل شيء يدفعه ويجذبه . وهي ؟ من هي ؟ انها سر مستعلق ، كما كانت كذلك دائما . انني لا أعرفها . انني لا أعرف منها إلا الجانب الحيواني . وأي شيء يمكن أن يجب أن يمنع الحيوان ...

« في تلك اللحظة ، انما تذكرت وجهيها أثناء السهرة ، حين عزفا ، بعد سوناتة كرويتزر ، قطعة قصيرة لا أذكر اسم مؤلفها ، ولكنها كانت شهوانية الى أبعد الحدود . قلت ل نفسي وأنا أرى ما كان في وجهيها من معان : كيف أمكنتك أن تسافر ! ألم يكن واضحا أنهما اتفقا على كل شيء يمكن أن يفرق بينهما بعد الآن ، وأنهما كانا يشعران كلاهما ، وخاصة هي ، بشيء من الحرج بعد كل ما وقع بينهما ؟ تذكرت بسمتها العذبة ، الخجلى ، السعيدة ، وتذكرت احمرار وجهها الذي كانت تمسح عرقه بمسديلهما وهي تقترب من البيانو . كانا منذ تلك اللحظة يتحاشيان أن ينظر أحدهما الى الآخر ولم يجروا الا أثناء العشاء ، بينما كانت تصب له الشراب ،

على أن يتبادلا النظرة ، وأن يتسم كل منها للآخر ابتسامة يسيرة لا تلاحظ . نعم ، لقد انتهى كل شيء . هذا ما هتف به لي صوت . ولكن صوتا آخر ما لبث أن هتف لي يقول نقيض ذلك ، يقول : ماذا دهاك ؟ ذلك مستحيل ! » . وأزعجني أن أبقى في الظلام ، فأوقدت شمعة ، وأخذ الخوف يستبد بي ، في هذه الغرفة الصغيرة المفروشة بساط أصفر . وأشعلت سيجارة فدختها ، وأتبعتها بسيجارة أخرى ، ثم بسيجارة ثالثة ، وهكذا دوالياك ، كما يتفق للمرء دائما حين يصارع اشكالا لا يعرف كيف يخرج منه ، وذلك حتى يطيش صوابه ، فما يدرك التناقضات التي في عقله .

« وظللت الليلة كلها لا أعرف الى النوم سيلا ، حتى اذا دقت الساعة الخامسة ، قررت انني لا أطيق احتمال هذه الحالة من اللبلة والتشوش وتوتر الفكر ، وهيات نفسي للسفر ، فهضت وأيقظت البواب الذي كان يخدمني ، وأرسلته يبحث لي عن خيل . وكتبت كلمة للمؤتمر ذكرت فيها أنني استدعيت الى موسكو على جناح السرعة لأمر مستعجل ، ورجوت أن ينوب عني في حضور جلساته عضو آخر من أعضائنا . وما جاءت الساعة الثامنة حتى كنت في طريقي الى موسكو .

## ٢٥

دخل مفتش القطار ، فلاحظ أن شمعة مصباحنا توشك على الانتهاء ، فأطفأها دون أن يضع شمعة أخرى في مكانها . وطلع الفجر . صمت بوزدنيشيف ، وزفر زفرات عميقة . ثم لم يستأنف رواية قصته الا بعد أن ذهب المفتش ، وأصبحنا في شبه ظلمة ، وأصبحنا لا نسمع الا تراطم زجاج القطار المارق مروق

السهم ، والا شخير البائع يتردد رتبا على وتيرة واحدة . كنت لا أتييه في ذلك الضوء الخافت ، ضوء الفجر . وانما كنت اسمع صوته ، فأدرك أنه يزداد اضطرابا شيئا بعد شيء ، وأنه يعاني ألما شديدا ، قال :

« كان علي أن أقطع خمسة وثلاثين فرسخا بالعربة ، وثمانى ساعات بالقطار . وكانت رحلتي بالعربة رائعة . كان ذلك في يوم بارد من أيام الخريف ، ولكن الشمس كانت ساطعة . عجالات العربة تخلف في جليد الطريق أخاديد جميلة ، والارض ناعمة ، والنور ساطع ، والهواء منعش . لقد أحسنت الي هذه الزهرة بالعربة . فما أن مضت بي حتى شعرت بتحسين في حالتي . فكنت أنظر الى الخيل ، وأسرح طرفي في الحقول ، وأتأمل الناس الذين أصادفهم ، فأسى الى أين كنت ذاهبا . حتى لقد خيل الي في بعض المحطات أنني مسافر لا لسبب يدفعني الى السفر دفعا ، بل للاستمتاع بلذة السفر . وكنت في نشوة من ذهولي عن نفسي هذا الذهول . وكنت اذا تذكرت عرضا الى أين أنا ذاهب أقول لنفسي : « دعك من التفكير في هذا الان ، وستضح كل شيء فيما بعد . » وفي منتصف الطريق وقع لي حادث صغير أخرني بعض التأخير ، وأتاح لي سلوى جديدة . لقد انكسرت العربة ، فكان لا بد من اصلاحها لاستئناف المسير . وكان لهذا الحادث شأن كبير ، لانه جعلني لا أصل الى موسكو الا في منتصف الليل ، ولا أصل الى البيت الا في الواحدة من الصباح ، في حين أنني كنت سأصل في الساعة الخامسة ، لقد تأخرت عن القطار السريع ، فاضطرت أن أسافر على قطار الركاب . وكان في وصول عربة النجدة ، واصلاح المركبة ، ودفع الاجرة ، واحتساء الشاي في المضافة ، والحديث مع صاحبها ، كان في كل ذلك مزيد من السلوى أنساني نفسي ،



فلما هبط المساء كان كل شيء قد هيء ، فاستأنفنا المسير . والحق  
أن الرحلة في الليل كانت أعظم متعة أيضا . القمر في ربه الاول ،  
والجو بارد ، والطريق جميلة ، والخييل من أجود الخيل ، والحوذي  
مرح . تمتعت بهذا كله ، وأنا لا أكاد أفكر فيما يتظرني ، أو  
لعلني تمتعت به هذا التمتع كله لأنني كنت أدرك مصري فأودع  
جميع مباحث الحياة . ولكن كل ما كنت أحسه من هدوء ومن سيطرة  
على عواطفني انتهى بانتهاء السفر على العربة . فما أن دخلت القطار  
حتى أصبحت اشعر بشيء آخر مختلف عما كنت أشعر به كل  
الاختلاف . ان الساعات الثماني التي قضيتها في القطار قد خلفت  
في نفسي أثرا طيبعا لن أنساه ما حييت . لا أدري هل يرجع ذلك  
الى أنني حين جلست في القطار تخيلت أنني وصلت ، أم هو يرجع  
الى أن السفر بالقطار يهيج اعصاب المسافرين ، ولكنني أعرف أنني  
مدت جلست على مقعدي في القطار أصبحت لا أستطيع أن أكبح  
جراح خيالي ، فكان يرسم لي صورة واضحة الى أبعد حدود  
الوضوح ، صورة تؤجج نار الغيرة في نفسي ، صورة قيحة تدور  
كلها على موضوع واحد يعينه : ما يقع هناك ، في منزلي ، ما يتم  
من خيانة أثناء غيابي . فكنت احترق ألما وحقا وكرها ، وكنت  
كالسكران من طيش صوابي . كنت لا أستطيع أن أطرد هذه  
اللوحات القظيمة ، بل وان استدعيتها الى خاطري . والافدح من  
ذلك أنني كنت كلما تأملت هذه الصور التي ينشئها خيالي أزداد  
إيمانا بأنها واقعة . كان وضوح ظهور هذه الاخيلة العجيبة في  
ذهني بمثابة دليل لي على أنها واقعة . كان هناك شيطان يوحى الي  
بفروض وظنون مجنونة ، على رغم ابروتي . وتذكرت حديثا قام  
بيني وبين أحد أخوتي تروها تشفسكي في الزمان الماضي ، فأفرحني  
فرحا عجيبا أن أمزق قلبي بتطبيق ذلك الحديث على تروها تشفسكي  
وزوجتي .

« لقد دار ذلك الحديث بيني وبين أخيه منذ مدة طويلة ،  
 ولكنني تذكرته عندهم واضحا . لقد سألت أخاه في ذلك الوقت  
 هل هو يرتاد بيوت الدعارة ، فأجابني بقوله : ان الرجل الشريف  
 لا يحتاج الى ارتياد تلك البيوت التي قد يصاب فيها بمرض ، والتي  
 هي شيء قد يبعث على الاشمئزاز ، ولكنه يستطيع بسهولة أن يجد  
 امرأة مناسبة . ها هو ذا أخوه قد وجد زوجتي اذن ! وقلت في  
 نفسي : صحيح ان زوجتي ليست في ريعان الصبا ، وأنها فقدت  
 أسنانها ، وأنها ترهلت قليلا ، ولكن على المرء أن يستفيد مما يعثر  
 عليه . . . . نعم ، انه يستطيع أن يتنازل فيهبط اليها ، ويتخذ منها  
 خلية الى حين . . . . ثم انها لا خطر منها على صحته الغالية ! . . .  
 قلت ذلك بيني وبين نفسي ، ثم ما لبثت أن هتفت وقد استبد بي  
 الذعر : لا ، لا ، ان هذا مستحيل . لا شيء من هذا يمكن أن يقع ،  
 بل ليس ثمة ما يدعوا الى مثل هذه الظنون البتة . ألم تقل هي نفسها  
 انها تشعر بالاهانة حين تصور تصورا أنني يمكن أن أغار منه ؟  
 نعم ، ولكنها كاذبة . انها . هذا ما صحت به . وعاد عذابي . . .  
 « لم يكن في العربة التي كنت فيها من القطار الا مسافران ،  
 امرأة عجوز وزوجها . وكانا صامتين كلاهما . وقد نزلوا عند احدى  
 المحطات ، فبقيت وحدي . كنت أشبه بوحش مقترس حبس في  
 قفص . ونهضت فجأة ، واقتربت من النافذة . كنت أمشي مهترا ،  
 كأنني أحاول أن أدفع القطار الى مزيد من السرعة . وكانت العربة  
 بما فيها من مقاعد وزجاج ، تفرقع مثلما تفرقع الان .  
 نهضت بوزديشيف ، وخطا بضع خطوات ، ثم عاد فجلس .  
 « آه . . . . انني أخاف ، انني أخاف من عربات القطار . انها  
 ترعبني . انها فظيعة . قلت لنفسي : فكر في شيء آخر . فكر مثلا  
 في تلك المضافة التي شربت فيها الشاي . ولكنني ما لبثت فكرت في

المضافة حتى تصورت صاحبها ذا اللحية وحفيده الذي هو في عمر  
ابني فاسيا • مسكين ابني فاسيا • انه سيرى الموسيقى وهو يقبل أمه •  
ما الذي سيدور في نفسه الشقية حين يرى هذا المشهد ؟ انها ، هي ،  
لا تعبا بهذا ، وليس له عندها قيمة ! هكذا كنت أعود الى التفكير  
في ذلك الموضوع نفسه • لا ، لا سأفكر في زيارة للمستشفى •  
أمس شكى أحد المرضى من الطيب • ولكن الطيب له شاربسان  
شبهان شارببي تروها تشفكي • يا لتلك الوقاحة في كذبهما علي ،  
حين زعم لي أنه سافر • هاءنا ذا أعود الى التفكير في الموضوع  
نفسه ! ••• ان كل ما كنت أفكر فيه كان يذكرني بتروها تشفكي •  
وكنت أعاني ألما فظيما • ان السبب الاساسي في هذا كله هو أنني  
أجهل وأثك ، ولا أستطيع أن أعرف هل يجب أن أحب زوجتي  
أم يجب أن أكرهها • وبلغت من فرط العذاب ان اتشق في ذهني  
فكرة طربت لها طربا كبيرا ، وهي أن أخرج من القطار ، وأن أتمدد  
على سكتيه ، فأخلص من الحياة • انني بذلك أتحرر من الشكوك  
على الأقل • ولم يخيفني من تنفيذ هذه الفكرة الا أنني أشفقت  
على نفسي اشفاقا كبيرا ، ورثيت لحالي كثيرا ، وأعقب ذلك كره  
وحشي مفترس شعرت به نحو زوجتي • كان شعوري نحوه ، هو ،  
عاطفة غريبة هي العداوة ممزوجة بالاحساس باخفاقي واتصاره •  
أما شعوري نحوها هي فقد كان هو الكره ولا شيء غير الكره •  
قلت لنفسي : لا يمكن أن أتحرر ، وأن أدعها هكذا ، يجب أن  
تألم قليلا لتعرف ما عانيت أنا من ألم •

« وكنت أنزل في جميع المحطات ، نشدانا للسوى • فرأيت  
في مقصف احداها اناسا يشربون ، فما لبثت أن بلغت عددا من  
أقداح الفودكا • وكان الى جانبي رجل يهودي يشرب ، فقام بيني  
وبينه حديث ، ثم صحبته الى العربة التي كان فيها من القطار ،

حتى لا أبقى في عربتي وحيدا • كان هو في الدرجة الثالثة ، وكانت  
حجرته قدرة ، ملأى بالدخان ، والنفايات • جلست الى جانبه ،  
فترثر كثيرا ، وقص علي نوادر وفكاهات • فكنت أصغي اليه ،  
ولكنني لا أفهم شيئا مما يقول ، لانني كنت غارقا في أفكارى • فلاحظ  
هو ذلك ، فأراد أن يشداليه انتباهي ، فنهضت وعدت الى حجرتي •  
قلت لنفسي : فكر في الامر أيها الرجل ، هل هذا الذي يشغل  
بالك أمر معقول ؟ • • هل هناك مبرر لهذا العذاب الذي تسيبه  
لنفسك ؟ • وجلست حتى أفكر على هون وراحة ، ولكنني ما لبثت  
أن عدت الى ما كنت فيه ، بدلا من تقليب الامر على وجوهه في  
هدوء ، فاذا اللوحات التي ينشئها خيالي تحل محل التفكير السليم •  
قلت لنفسي : ما أكثر ما تأملت أيها الرجل مثلما تتألم الان ( تذكرت  
نوبات الغيرة التي تملكنتني في الماضي ) ، ثم ثبت لك أن غيرتك  
لم تكن في محلها • ثق أنك ستجدها الليلة نائمة في سريرها نوما  
هادئا ، وسيسعدنا أن تستيقظ فتراك أمامها ، وستحس من كلماتها  
ونظراتها ان شيئا لم يقع ، وأن كل ما خسامرك من ظنون كان  
سخيفا ! • • • ولكن لا • • • ان ما حدث في الماضي غير ما يحدث  
الان • هكذا هتف بي هاتف من أعماق نفسي ، وزادت حالتي  
غليانا • نعم ، انه لعذاب شديد • لو أردت أن أقزز شبا من النساء  
الى الابد ، لما أريته مشهد مرضى مصابين بالزهري في مستشفى من  
المستشفيات ، بل لكشفت له عن نفسي عارية حتى يرى الشياطين  
التي تمزقها تمزيقا • وأندح ما في الامر أنني كنت أعد نفسي  
صاحب حق في جسدها كأنه جسدي أنا ، وكنت أحسن رغم ذلك  
أنني لا أملكه ، وأنها تستطيع أن تتصرف فيه كما يشاء لها هواها ،  
وأنها تريد أن تتصرف فيه على غير ما أريدها ، وأنتي لا أستطيع أن  
أفعل شيئا في حقها ولا في حق صاحبها •

« انه ليستطيع أن يفني أمام المشقة، مثلما فعل فانكا لتستينيك (١)،  
أعنية يشيد فيها بمغامراته وقبلاته • وهو المنتصر عندئذ • وإذا كنت  
عاجزا ازاءه ، فأنني ازامها لأعجز • وإذا ثبت انها لم تفعل شيئا  
بعد ، وانما هي تنوي أن تفعل شيئا ، فإن ذلك أنكى • الحق أنني  
كنت لا أعرف ماذا أريد • كنت أريد أن لا تمنى ما كان ينبغي  
أن تتمناه • كنت في حالة من حالات الجنون •

## ٢٦

— فلما أقبل المقتس ، قبل الوصول الى المحطة الاخيرة ، يجمع  
التذاكر ، هيأت أشياءي وخرجت الى المقسحة • ان شعوري بأن  
اللحظة الحاسمة تقرب قد فاقم اضطرابي • وشعرت ببرد يسري  
في جسمي ، وأخذت أسناني تصطك • فلما وقف القطار نزلت مع  
النازلين على غير شعور ، واستأجرت عربة ، ومضيت ، كنت أنظر  
الى المارة القلائل ، والى حراس الليل ، والى الظلال التي تلقىها  
التصاييح وتلقيها عربتي من خلف تارة ومن قدام تارة أخرى ، كنت  
أنظر الى ذلك كله دون أن أفكر في شيء •

فلما اجتزت هذه المحال نصف كيلو متر ، أحسست بصقيع  
في قدمي ، فتذكرت أنني قد خلعت جوارب الصوف في القطار  
ووضعت في الكيس • أين الكيس ؟ هو ذا • وأين السلة ؟ هنا  
تذكرت أنني نسيت أن أستلم حطائي ، ولكنني وقد رأيت أنني  
أحمل قسيمتها، قررت أن لا أعود لاخذها وتابعت طريقي •  
« انني أحاول أن أتذكر الان الحالة النفسية التي كنت فيها

(١) شخصية أقصوصة روسية ( المترجم )

عندئذ ، فلا أستطيع . لا أعرف الان ما الذي كنت أفكر فيه ،  
وما الذي كنت أريده . ولكنني أتذكر أنني كنت أحسن أن أمرا  
رهيبا سيقع ، أمرا خطيرا كل الخطورة في حياتي . . . هل وقع  
هذا الامر لأنني كنت أفكر فيه ، وأوجسه ؟ لا أدري ! ليس من  
المستبعد على كل حال ان الدقائق التي سبقت ما تلاها من حوادث قد  
استمدت من هذه الحوادث ألوانا قاتمة . اقتربت من عتبة بيتنا .  
كان الليل قد جاوز نصفه بضع دقائق . وهناك في الطريق عربات  
تنتظر عسى أن تعثر على زيون . القاعة والصالون من بيتي مضاهان  
يخرج من نوافدهما نور .

لم أسأله لماذا يظل النور في بيتي مشتتلا الى مثل هذه الساعة  
المتأخرة من الليل ، ولكنني كنت أتوقع شيئا رهيبا ، فصعدت السلم ،  
وقرعت الجرس . ففتح لي الباب ايجور ، خادما الطيب النشيط  
الغبي . ان أول شيء خطف بصري في المر معطف معلق الى جانب  
ملابس أخرى . كان ينبغي أن أدهش ، ولكنني لم أدهش لانني  
كنت أتوقع ذلك . قلت لنفسي : نعم ، صدق ظني . وسألت ايجور ،  
فقال ان تزوها تشفسكي هنا . وسألته هل هناك أحد غيره أيضا ،  
فأجاب : لا . ما زلت أتذكر نبرة صوته . لكأنه كان يريد أن  
يهجني وأن يبدد شكوكي . قلت لنفسني مرددا : نعم . . . نعم . . .  
وأين الاولاد ؟ انهم نائمون ، وهم بحمد الله في صحة جيدة .  
« أحتقت أنفاسي ، وكنت لا أستطيع أن أفق اصطكاك  
أسناني .

« الأمر يختلف اذن عما كان يقع في الماضي . كنت أتخيل  
دائما أن كارثة ستحل ، ثم لا تحل الكارثة . أما الان فالأمر  
مختلف كل الاختلاف . ان ما تخيلته هذه المرة ، وما فكرت فيه ،  
يتحقق كله .

« وأوشكت أن انفجر باكيا شاهقا ، ولكن الشيطان هتف بي يقول : « ابك أيها المسكين ، رقق قلبك أيها المسكين ، وفي أثناء ذلك يكونان قد انفصلا على هون وهدوء ، فلا يبقى لك أي برهان على ما وقع بينهما ، ثم تعيش حياتك كلها في شك وعذاب . » فما ان سمعت هذا الكلام يهتف لي به الشيطان ، حتى زال حزني فحاة ، وتملكني عاطفة عجيبة لن تستطيع أن تفهما ، هي الفرح . . نعم لقد افرحني أن عذابي سينتهي بعد قليل ، أنني أستطيع الآن أن أعاقب زوجتي ، أن أتخلص منها ، أن أطلق العنان للبغضاء . وهذا ما فعلته ، فأصبحت وحشا خيئا ماكرًا .

« قلت لايجوز الذبحا كان يريد أن يذهب الى الصالون : لا ، لا ، بل خذ عربة ، وامض . . . هذه قسيمة حقائبي ، فاذهب الى المحطة ، وائتني بها . هيا ! . . »

« فاجتاز ايجور المرر ليأخذ معطفه ، فحفت أن يذهب اليهما لينبهما الى انني وصلت ، فمشيت وراءه الى حجرته ، وظللت انتظره على بابها حتى ارتدى ملبسه . انني اسمع اصوات كلام آتية من الصالون ، وقرقعة سكاكين وأطباق . انهما يأكلان ، ولم يسمعا صوت جرس الباب حين قرعته .

« قلت في نفسي : أخشى أن يخرجوا حالا . وارتدي ايجور معطفه ذا الياقة المصنوعة من فراء الاستراكان . فأخرجته ، وأغلقت الباب وراء . انني الآن وحدي ، وعلي أن أبشر العمل . شعرت من ذلك بانزعاج ، لم أعرف لماذا شعرت بذلك الانزعاج . ولكنني كنت أعرف أن كل شيء قد انتهى ، وأن اقترافها للجريمة أمر لاشك فيه ، وأنني سأعاقبها ، وأقطع كل علاقة بها .

« كنت أستطيع قبل ذلك أن أشك ، وأن أقول لنفسي : لعلك مخطيء يا هذا ، وقد تكون تصوراتك كلها باطلة . أما الآن فلم يبق

محل للشك • لقد تم كل شيء ، ما في ذلك ريب • سرا ••••  
وحدها معه ••• في جنح الليل • لقد نسيت بهذا كل شيء نسيانا  
تاما • انها لجرأة عجيبة في اقرار الجريمة ، انها لوقاحة ما بعدها  
وقاحة • لم يبق من شك ••• كنت لا أخشى الا شيئا واحدا ، هو  
أن يفصلا ، وأن يلفقا أكذوبة جديدة ، فيجرماني من امكان  
مفاجأتها متلبسين بالجرم • ومن أجل ذلك ، من أجل أن أوافيها  
بأقصى سرعة ، اتجهت الى القاعة التي كانا فيها أسير على رؤوس  
الاصابع ، ولكنني سرت نحو القاعة عن طريق المر وغرف الاطفال  
بدلا من الصالون • كان الابناء من أولادي ينامون في الغرفة  
الاولى • وكانت المربية تنام في الغرفة الثانية ، فلما دخلت تحركت  
وأرادت أن تستيقظ ، فتخيلت ما عسى أن يخطر ببالها اذا هي  
استطاعت أن تعرف الحقيقة ، فأشفقت على نفسي ، ولم أستطع أن  
أحبس دموعي ، وظللت أسير على رؤوس الأصابع حتى لا أوقظ  
الأولاد ، وهرعت من خلال المر الى حجرة عملي ، وهويت على  
الديوان باكيا ناشجا •

« انني رجل شريف ، سليل أسرة محترمة ، حلمت طوال  
حياتي بسعادة الحياة الزوجية ، وما خنت امرأتي في يوم من الايام  
••• وها هي ذي الان تقبل موسيقيا نافها لان شفتيه حمر او ان !••  
وهي أم لخمسة أولاد •••

« لا ، لا ، انها ليست بانسان ، انها كلبة ، كلبة حقيرة ! وهي  
تفعل هذا كله قرب غرفة الاولاد ، الذين كانت تتظاهر بجهم تظاهرا  
أتكذب لي ما كتبه ، ثم تتهادى على عنق هذا الرجل في هذه  
الصورة الوقحة ؟ ماذا كنت أعرف عن هذا كله ؟ لعلها كانت دائما  
هكذا ! وهؤلاء الاولاد الذين أعدهم أولادي ألا يمكن أن يكونوا  
أبناءها من بعض الخدم ؟



« لو أنني وصلت في القيد ، فاستقبلتني رشيقة لطيفة مرتدية  
أجمل ملابسها ( تخيلت وجهها الجذاب البيض في آن واحد ) ،  
لظلل الوحش الغيور مسجوناً في نفسي الى الابد ، ولزفته . ترى  
ماذا تقول المريية لنفسها ، وماذا يقول اجور لنفسه ، وماذا تقول  
لنفسها ليزا المسكينة التي أصبحت تفهم كل شيء ؟ يا للوقاحسة !  
يا للكذب ! يا للشهوانية الحيوانية التي أعرفها حق المعرفة ! أردت  
أن أنهض ، فلم استطع . ان قلبي قد بلغ من شدة الخفقان أنني  
لا أستطيع أن أقف على قدمي . نعم ، سأموت بسكنة القلب ، وبذلك  
تنصر علي . انها لا تريد غير هذا . وما هو القتل عندها ؟ لا ، لا ،  
انها ستسعد يموتي كثيراً ، ولن أتيح لها ذلك . أنا الان هنا ، وهما  
هناك يأكلان ، ويضحكان ضحكا قويا . . . . نعم ، انه لا يزهد بها ،  
رغم أنها ليست في ريعان الشباب . والحق انها لا بأس بها ، وهي  
غير خطيرة على صحته الغالية . لماذا لم أذبحها قبل الآن ؟ ههنا  
ما هتفت به وقد تذكرت لحظة طردها وحطمت كل ما كان على  
مكتبي . تذكرت الحالة النفسية التي كنت فيها عندئذ تذكرنا واضحا  
. . . . لم أتذكرها فحسب ، بل شعرت مرة أخرى بتلك الحاجة  
نفسها الى الضرب والتحطيم . واستبدت بي رغبة جامحة قاهرة في  
أن أفل شيتا ، وخرج من رأسي كل ما عدا ذلك . وأصبحت  
كحيوان أو كإنسان أهاجته رؤية خطر يهدد حياته ، فهو يعمل بدقة  
عظيمة ، دون تعجل ، ولكن دون أن يضع دقيقة واحدة ، وقد  
اتجهت جميع ملكاته الى هدف واحد .

## ٢٧

- أول حركة قمت بها هي أنني خلعت حدائي . ثم

اقتربت من الجدار الذي كانت بنادقي وخارجي معلقة عليه فوق  
الاربيكة ، فتاولت خنجرا دمشقيا لم يستعمل قبل ذلك ، وكان  
متقفا حادا ، فأخرجته من غمده ، فوقع الغمد على الاربيكة ، فقلت  
لنفسى : أرفع الغمد فيما بعد ، أما الآن فيجب أن أبشر العمى ،  
والا فقد تفلت مني . ثم خلعت عني معطفي الذي لم أحلعه طوال  
ذلك الوقت ، وسرت حافيا بهدوء ، حتى وصلت الى هناك ، فاقتربت  
من الباب دون ضوضاء وفتحتة على حين فجأة .

• ما أزال أرى الى الآن تعبير وجهيها . وانى لا ذكره خاصة  
لانه بث في نفسي فرحا أليما عجيبا . شي ، فقطع . هذا ما كنت في  
حاجة اليه . لن أنسى ، ما حيت ، الذعر الذي لاح في وجهيها حين  
رأيتني أول لحظة . يخيل الي أنه كان حالسا الى المائدة ، ولكنه  
ما ان رأيتني أو سمعني حتى هب واقفا أمام المرأة . كان الرعب  
مرتسما على وجهه . أما هي فقد كان وجهها يعبر عن الرعب ، وعن  
شيء آخر غير الرعب . ولو لم يظهر في وجهها غير الرعب لكان  
من الممكن أن لا يقع ما وقع ، ولكنني تخيلت ، في اللحظة الأولى  
على الأقل ، أنه اكانت تفيض استياء وانزعاجا من أنني ظهرت في  
هذه اللحظة فقطعت عليها ما كانت مسترسلة فيه من حب وسعادة .  
لقد بدا لي انها كانت لا تريد في تلك اللحظة شيئا غير سعادتها .  
ولم يدم ظهور هذه المعاني في وجهيها الا لحظة خاطفة . فاذا  
تروهاستفسكي كأنه يسأل بينه وبين نفسه : أأكذب عليه أم لا ؟  
اذا كان يجب أن أكذب عليه ، فلأبدأ فورا ، والا يكون لنا معه أمر  
آخر . ولكن ماذا أقول له ؟ ثم ألقى على زوجتي نظرة سائلة .  
وخيل الي أن ما كانت تشعر به زوجتي من استياء وحسرة قد لفه  
الآن قلق على صاحبها وخوف من أن أمسه بسوء .

« توقفت عند العتبة لحظة ، وأنا أخفي الخنجر وراء ظهري •  
« فاذا بتروها تشفسي يتسم ، ثم يقول بلهجة فيها من عدم  
الأكتر ما يثير الضحك في مثل هذه الظروف : « كنا نغنى  
بالموسيقى ••• »

« وأردفت هي تقول مصطعة تلك اللهجة نفسها : ما كنا نتنظر  
وصولك ••• »

« ولكن لم يتسع الوقت لا لها ولا له أن يكمل كلامهما ، فان  
الغضب الحائق الذي شعرت به منذ أسبوع قد عاد يستبد بي الان ،  
وشعرت مرة اخرى بتلك الحاجة الى التحطيم والعنف والاندفاع  
المجنون ، واستسلمت لهذه العواطف •

« لم يستطيعا أن يتماكلاهما • اذ بدأ عندئذ ذلك الشيء الذي  
ذعرا منه أشد الذعر ، وقطع أية محاولة للشرح والتفسير •

« لقد هجمت على زوجتي ، وأنا ما أزال أخفي خنجري وراء  
ظهري حتى لا يستطيع أن يمنعي من طعنها في جنبها تحت الثدي •  
وكت قد اخترت هذا المكان منذ البداية • ولكنه رأى الخنجر في  
تلك اللحظة نفسها ، فاذا هو يمسك يدي بحركة لم أكن أتوقعها  
منه ، ويصيح قائلا : « أنت مجنون ؟ عد الى صوابك ، ما بك ؟  
النجدة ، النجدة ! ••• »

« وخلصت يدي من يده ، وهجمت عليه • والتقت نظراته  
بنظراتي ، فاصفر اصفرارا عجيبا ، ثم اذا به ، وهذا ما لم أكن  
أتوقعه أيضا ، يفلت مني ، ويهرب الى الباب مارا من تحت البيانو •  
فاندفعت أجري وراءه ، ولكنني شعرت بثقل في ذراعي اليسر •  
انها هي تمسك بي • فحاولت أن أتملص منها ، ولكنها ازدادت  
تشبثا بي ، ولم تركني وشأني • ان هذا الحاجز الذي لم أكن أتوقعه  
وهذا الثقل الذي يشدني ، وملامستها الكريهة لي ، كل ذلك قد

زادني هياجا . فشعرت انني أصبحت مجنونا كل الجنون ، وأنتي  
رجل رهيب فظيع ، فسرتني ذلك . فخلصت ذراعي اليسرى منها  
وضربتني بكوعى على وجهها . فصرخت وتركت يدي . وأردت  
مرة أخرى أن أندفع راكضا وراء تروها تشفسكي ، ولكنني  
تذكرت أنني حاف ، ورأيت أن من المضحك أركض وراء عشيق  
زوجتي وأنا على هذه الحال . وكنت لا أريد أن أوحى بالضحك  
علي ، بل بالخوف مني . كنت رغم الغضب المجنون الذي يعصف  
بي أدرك تمام الادراك الاثر الذي أحدثه في الآخرين حتى لقد  
كان هذا الاثر الذي أحدثه في الآخرين هو الذي يوجهني ويقود  
خطواتي بعض الشيء . فالتفت نحو زوجتي ، فرأيتها قد وقعت  
على أحد المقاعد ، ورفعت يدها الى عينيها المروعتين ، وأخذت تنظر  
الي . كانت انفاسها خوفا وكراهية ، كما يلاحظ ذلك في فأرة في  
الفخ حين يقرب عدوها الأسان . وكنت ، من جهتي ، لا أرى  
فيها غير هذا الخوف وغير هذ الكراهية التي تشعر بها نحوي ،  
وهما خوف وكراهية ناشتان عن حبها لشخص آخر غيري ، لو  
أنها سكنت لكان من الممكن أن أكبح جماح نفسي وأن لا أفعل  
ما فعلت . ولكنها ما لبثت أن أخذت تتكلم وهي تقبض على يدي  
المسكة بالخنجر .

« عد الى صوابك ! ماذا بك ؟ ماذا تظن ؟ ليس هناك شيء ،

ليس هناك شيء ، ليس هناك شيء ، أحلف لك ، أقسم لك !

« كنت ما أزال مترددا ، ولكن كلماتها الاخيرة هذه التي

استنتجت منها نقيضها ، أي استنتجت منها أن كل شيء تم ، كانت

تقتضي جوابا عليها ، وكان ينبغي أن يتناسب هذا الجواب مع حالة

الغضب الجامح التي وصلت اليها والتي كانت تزداد عنفا لحظة بعد

لحظة . ان للغضب قوانينه .

« فصرخت أقول : لا تكذبي يا حقيرة •

« ثم أمسكتها بيدي اليسرى من ذراعها • ولكنها أفلتت مني •  
فما كان مني الا أن قبضت على عنقها ، وقلبتها على الديوان ، وأنا  
ما أزال أحمل الخنجر بيدي ، وضغطت على رقبتها ••• يا لرقبتها  
ما كان أقساها !••• فأمسكت بيدي ، ودفعتها من عنقها ، وكأني  
لم أكن أنتظر غير ذلك ، فأعمدت الخنجر في جنبها الأيسر •

« حين يدعي الناس أنهم لا يتذكرون ما قاموا به أثناء فورات  
الغضب فانهم يكذبون • كنت أدرك كل شيء ، ادراكا واضحا ، ولم  
أفقد هذا الإدراك في لحظة من اللحظات • كنت كلما ازداد غضبي  
جنونا ، يزداد وعيي وضوحا ، فأرى كل ما أعله رؤية جلية • لم  
أفقد وضوح شعوري لحظة واحدة • لا أستطيع أن أقول أنني كنت  
أعرف سلفا ما قد أقوم به من عمل • ولكنني كنت في اللحظة التي  
أقوم فيها بأي عمل ، أو ربما قبل ذلك بثانية ، أحس بما سأقوم  
به ، كأنما لأدع لنفسي حرية الاختيار ، لأستطيع أن أقول لنفسي  
فيما بعد انه كان في وسعي أن أتوقف • كنت أحس أنني سأطعنها  
تحت الأضلاع ، وأن الخنجر سيدخل • وفي اللحظة التي كنت  
أنفذ فيها هذا الفعل ، كنت أعرف أنني أقوم بعمل فطيع لم أقم به  
من قبل ، وأن هذا العمل ستكون له نتائج مروعة • ولكن ذلك  
كله ينقضي في وضعة ، ويعقبه الفعل فورا • وكنت أشعر شعورا  
واضحا وضوحا عجيبا بالعمل الذي أقاربه • أحسست بالمقاومة  
الخفيفة التي اعترضت طريق الخنجر حين اصطدم بالشد الذي  
شد جسم زوجتي تحت ثوبها ، وأحسست بشيء آخر أيضا ، ثم  
دخلت السكين في اللحم اللين • ولقد أمسكت الخنجر بيديها ،  
فقطعت أصابعها ، ولكنها لم تستطع أن تقف الخنجر عن النفاذ  
في جسمها •

« أثناء أقامي في السجن ، حين وقعت الثورة الأخلاقية في نفسي ، أمعت النظر طويلا في تلك الدقيقة ، وتذكرت ما كان يمكنني أن أفعله ، وفكرت • أنذكر الآن أنني خلال لحظة خاطفة سبقت الفعل ، أحسست احساسا عظيما بأنني أقتل ، بأنني أقتل امرأة ، امرأة لا حول لها ولا قوة ، امرأة لا تستطيع أن تدافع عن نفسها ، هي امرأتي • وأعلب الظن أنني بسبب ذلك اليقين المروع انصبا سلكت الخنجر فورا بعد أن أعمدته ، متمنيا أن أتدارك الاثم الذي اقترفت • وظلمت خلال لحظة من الزمن واقفا بلا حراك ، أنتظر ما سيعقب ذلك ، وأريد أن أعرف هل من سبيل الى اصلاح الخطأ • » وكانت قد انتصبت واقفة ، وهي تصرخ : « دادا ••• دادا ••• لقد قتلني • »

« وسمعت المربية الصراخ ، فهرعت البنا ، ووقفت عند عتبة الغرفة • كنت ما أزال واقفا أنتظر ولا أريد أن أصدق ••• وفي هذه اللحظة تفجر الدم من تحت المشد ، فأدركت عندئذ أنني قد ارتكبت العمل الذي لا سبيل الى اصلاحه ، فقررت فورا أنني أحسنت صنعا ، وأتني أردت ذلك ، وكان لا بد لي أن أقتل ما فعلت • وانتظرت أن تسقط على الارض • هتفت المربية : « يارب ! » وهرعت اليها ، وفي تلك اللحظة رميت الخنجر ، والتفت نحو الباب لأخرج من الغرفة • « يجب على المرء أن يكون هادئا ، وأن يعرف ماذا يعمل » • هذا ما قلته لنفسي دون أنظر اليها أو الى المربية •

« كانت المربية تصيح وتنادي الخادمة • وخرجت الى الممر ، وبعثت بالخادمة ، ثم اتجهت الى غرفتي • « ما الذي يجب أن أعمله الآن » • طرحت على نفسي هذا السؤال ، وأدركت جوابه فورا • فلما دخلت الى حجرة عملي ، اقتربت من الجدار ، وتناولت مسدسا ،

ونظرت فيه ، وكان محشوا بالرضاص ، فوضعته على المنضدة •  
ثم رفعت غمد الخنجر ، واستلقيت على الديوان •  
« ظلمت على هذه الحال مدة طويلة ، لا أفكر في شيء ولا  
أذكر شيئا • وسمعت هرجا ومرجا في البيت • ها قد وصل شخص ،  
وها هو ذا آخر يصل • وسمعت وقع أقدام ايجور ، ورأيت يدخل  
بالحقائب الى غرفتي • كأن هذا كان ضروريا • قلت له :  
- هل تعرف ماذا وقع ؟ امض الى البواب فقل له أن يستدعي  
الشرطة •

« فلم يقل ايجور شيئا ، وخرج • فهضت ، وأغلقت الباب ،  
وتناولت علبة سجائري فأشعلت سيجارة • ولكنني نمت قبل أن  
أنهيا ، من فرط النعاس • أغلب الظن أنني نمت ما يقرب من  
ساعتين • وأذكر الآن أنني رأيت فيما يرى النائم أن علاقانا  
طيبة ، وأنا تشاجرنا ثم تصالحنا ، وأن ثمة شيئا رغم ذلك يمنع  
علاقانا من أن تكون طيبة تماما • ثم استيقظت على طرقات الباب •  
قلت في نفسي : « انهم رجال الشرطة • يخيل الي أنني ارتكبت  
جريمة قتل • ولكن لعل الطارق هو زوجتي • ولعله لم يقع  
شيء » •

« واستمر طرق الباب • فظلمت صامتا لا أجيّب ، وظلمت  
أطرح على نفسي هذا السؤال : هل وقع الأمر ، أم أنه لم يقع ؟ •  
ثم قلت : بل لقد وقع ، نعم وقع • وتذكرت المقاومة التي لقيتها  
خنجري حين اصطدم بالمشد ، وتذكرت السكين وهي تغوص في  
اللحم • فشعرت من ذلك ببرد في ظهري • نعم ، لقد قتلت •  
والآن جاء دوري • هذا ما قلته لنفسي •

« وكنت أعرف مع ذلك أنني لن أتحر • ولكنني رغم معرفتي  
هذه بأنني لن أتحر ، نهضت وتناولت المسدس مرة أخرى • انه

لشيء عجيب : تذكرت أنني في الماضي هممت أن أتحرر عدة مرات ، بل لقد كنت منذ قليل ، في القطار على أتم الاستعداد لأن أتحرر . وكان يبدو لي ذلك سهلا ، لأنني كنت أتصور الدهشة التي ستصيب زوجتي حين تعلم بذلك . أما الآن فأنني لا أستطيع أن أقتل نفسي ، بل انني لا أستطيع أن أفكر في هذا . « لماذا أقتل نفسي ؟ » هكذا تساءلت ، ولم أستطع أن أفوز بجواب على هذا السؤال .

« وطرق الباب مرة أخرى . قلت : يجب أن أرى أولا من الطارق . وفي الوقت بعد ذلك متسع . فوضعت المسدس على المنضدة وغطيته بغطاء . ثم اقتربت من الباب وسحبت المزلاج . انها أخت زوجتي : امرأة أيم ، طيبة ، غيبة بعض الغباء . فلما رأنتني صرخت نقول :

- فاسيا . ما هذا ؟

ثم أخذت دموعها تتفجر من عينيها ، ذلك أن من عاداتها أن تبكي بسهولة .

فقلت بفضافة :

- وماذا تريدن ؟

كنت أشعر أنه ما يجب أن أخاطبها بلفظة ، ولكنني لم أستطع أن أصطنع لهجة أخرى .

- فاسيا ، انها تموت . هكذا قال ايفان زاها روفتش ( لقد

كان ايفان زاها روفتش طبيها ، مستشارها ) .

فسألتها :

- أهو هناك ؟

سألتها هذا السؤال ، وعاودني سخطي وحقني مرة أخرى .

وأردفت أقول :



- ماذا تريدن ؟

- اذهب اليها • حقا انه لشيء فظيع! ...

فسألت نفسي :

- هل يجب أن أذهب اليها •

ثم رأيت فوراً أن ذلك واجب ، وأن الأمور ربما كانت تجري دائماً على هذا النحو ، وأن الزوج الذي يقتل زوجته ، كما فعلت أنا ، ينبغي له أن يذهب اليها • قلت لنفسي :

- ما دام هذا واجباً ، فلأذهب اليها • وسيبقى في الوقت متسع لأن أقتل نفسي اذا دعت الحاجة الى ذلك •

وتبعت أختها ، وأنا أقول لنفسي : « سيكون كلام ، وسيكون تمثيل ... ولكنني لن أستسلم ... » • ثم قلت لأختها : « انتظري ، فمن الحماسة أن أمضي اليها بلا حذاء • ولأتمتع حظي على الأقل » •

## ٢٨

- شيء غريب : حين خرجت من غرفتي واجتازت هذه الحجرات المألوفة عندي ، أملت مرة أخرى أن لا يكون قد وقع شيء ... ولكن الرائحة التي يجيء بها الأطباء دائماً ما لبثت أن زكمت أنفي : يودوفورم ، حامض الفوليك ... قلت لنفسي : لا ... لقد وقع الأمر • فلما مررت قرب غرفة الأطفال رأيت ابنتي ليزا • انها تنظر الي بعينين تفيضان بالدمع • وتراءى لي أن أولادي الخمسة هناك ، وانهم ينظرون جميعاً الي • واقتربت من غرفتها • ففتحت الخادمة الباب ، وخرجت • كانت ممددة على الوسائد وقد فكت أزرار قميصها ، ووضع على جرحها شيء • ان رائحة اليودوفورم تملأ الغرفة • وقد خطف بصري خاصة

أن وجهها متورم مزرق ، ولا سيما قرب الأنف وتحت العينين •  
أن ذلك من آثار الضربة التي سدتها الى وجهها بكوعي حين أرادت  
أن تمنعني من ملاحظته • لم يبق فيها شيء من جمال ، لم يبق فيها  
الاشيء يثير الاشمئزاز • قالت أختها :  
- اقرب ، اقرب •

قلت لنفسي : لعلها تريد أن تعترف بكل شيء ، وأن أغفر  
لها • نعم ، انها تموت ، وأستطيع الآن أن أفعل ( قلت لنفسي هذا  
وأنا أريد أن أكون سمحا كريما ) •

واقتربت منها • فرفعت نحوي ، بجهد وعناء ، عينيها اللتين  
كانت احدهما متورمة ، وقالت وهي تتوقف عند كل كلمة :

- انتصرت ••• قتلتي ••• ( قالت ذلك وظهر في وجهها ،  
من خلال الآلام الجسمية واقتراب الموت ، ظهر في وجهها ذلك  
الكره الذي أعرفه حق المعرفة ، ذلك الكره البارد الحيواني ) •••  
ولكن الأولاد •• الأولاد •• لن أسمح لك بأخذهم •• ستأخذهم  
هي ( أشارت الى أختها ) •

لم تر أن من الضروري أن تشير بكلمة واحدة الى خطيتها ،  
الى حياتها ، وذلك كان أهم شيء عندي •

وأردفت تقول وهي تنظر الى ناحية الباب :

- نعم ••• تستطيع أن تفاخر بما عملت •••

وأخذت تنسج • كانت أختها واقفة عند عتبة الباب يحيط  
بها أولادنا •

- أنظر ماذا صنعت !•••

« نظرت الى الأولاد ، ثم نظرت الى وجهها المتورم ، قرأيت  
فيها لأول مرة كأننا انسانيا •

« كل ما كان يزعجني ، وكل ما كنت أشعر به من غيرة بدا

لي تافها تفاهة مطلقة اذا قيس بما صنعت يداي • ووددت لو أضع  
وجهي على يد امرأتي لأقول لها : • اغفري لي ، • ولكنني لم  
أجرؤ أن أفعل ذلك •

• كانت صامته ، منمضة العينين ، لعلها لا تملك من القوة  
ما يمكنها من الاستمرار في الكلام • ثم ارتعش وجهها المشوه  
فجأة ، وتشنج • قدفتني عنها في يسر • وقالت :

— لماذا كل هذا ؟ لماذا ؟

فقلت :

— سامحيني •

— أسامحك ؟ هذا سخف ! ليتني أستطيع أن لا أموت ( صاحت  
تقول ذلك وهي ترفع رأسها ، واتجهت عنها المحموتان الي ) •  
نعم ، لقد انتصرت علي • انني أحتقرك • آي • • • آه ( كذلك  
صرخت هاذية مذعورة ) • هيا اقتلني ، اقتلني ، لست خائفة •  
ولكنهم جميعا ، جميعا ، وهو • • • لقد ذهب • • • لقد ذهب •  
• وأخذت منذ تلك اللحظة تهذي طوال الوقت • وأصبحت  
لا تعرف أحدا • وماتت في ذلك اليوم نفسه عند الظهر • وقد  
نقلوني قبل ذلك الى مركز الشرطة ، وقادوني من هناك الى السجن •  
• مكثت في السجن أحد عشر شهرا أنتظر صدور الحكم ،  
وفي أثناء ذلك فكرت في ماضي وفهمت • كان الثور قد أخذ يسرب  
الى شعوري منذ اليوم الثالث • ففي ذلك اليوم أخذوني الى حيث  
كانت • • •

أراد أن يتم كلامه ، ولكنه لم يستطع أن يجبس دموعه  
فتوقف عن الكلام • ثم بذل جهدا قويا ، فتابع يقول :  
• لقد بدأت أفهم ، حين رأيتها في تابوتها • • •

قال ذلك ثم راح يبكي مرة أخرى ، ولكنه ما لبث أن أسرع  
بأكمل حديثه :

« فحين رأيت وجهها الميت فهمت ما صنعت يداي : فهمت  
أنني أنا الذي قتلتها ، وأن هذا الكائن الذي كان حيا حارا قد أصبح  
سبيي أنا ساكنا ، أصفر كالشمع ، باردا ، وأن هذا العمل لا سيبل  
الى اصلاحه ، في أي مكان ، بأية وسيلة . ان من لم يعش هذه  
التجربة لا يستطيع أن يفهمها ... »

« أوه ... أوه ... أوه ... » كذلك صرخ عدة مرات  
ثم سكت

وظللنا صامتين مدة طويلة . كان يبكي ناشجا ، ويرتعش من  
قمة رأسه الى أخمص قدميه دون أن يقول شيئا ، وقد رق وجهه  
واستطال ، حتى لكان فمه أصبح يحتله كله . ثم قال فجأة :

« نعم ، نعم ، لو كنت أعرف ما أعرفه الآن ، لجرت الأمور  
مجري آخر . لو كنت أعرف ما أعرفه الآن لما تزوجتها مهما يكن  
من أمر ... ولما تزوجت البتة . »

وصمتنا مرة أخرى .

سامخني

قال لي ذلك ، وأشاح بوجهه عني ، ثم تمدد على المقعد وغطى  
جسمه بغطاء .

فلما وصل القطار الى المحطة التي كان علي أن أنزل فيها ،  
كانت الساعة قد بلغت الثامنة من الصباح ، فاقتربت لأودعه .

لا أدري أكان نائما أم كان يتظاهر بأنه نائم . ولكنه لم  
يتحرك . فلمسته بيدي ، فأزاح الغطاء ، فخيل الي أنه لم يكن  
نائما . قلت وأنا أمد اليه يدي :

- وداعا •

فقد يده ، واتسم ابتسامة خفيفة لا تكاد ترى ، ولكن  
ابتسامته هذه كانت من شدة تأثيرها في النفس أنني وددت لو أبكي •

- سامحني •

هذا ما قاله • وتلك هي الجملة الأخيرة التي كان قد ختم بها  
قصته كلها •

♦ ♦ ♦

صدر حديثاً عن

دار اليقظة العربية للتأليف والترجمة والنشر

## دراسات عربية

سلسلة يشرف على إصدارها

الدكتور عزة النص وسامي الدروبي ظهر منها

الوطن العربي - الاتجاه السياسي والملاحج الاقتصادية

تأليف الدكتور عزة النص

## دراسات في الفكر السياسي

سلسلة يشرف على إصدارها

الدكتور جمال الأناسي

ظهر منها

تفكير كارل ماركس - ١ - نقد الدين والفلسفة

تأليف جان ايف كالفيز

ترجمة جمال الأناسي وسامي الدروبي